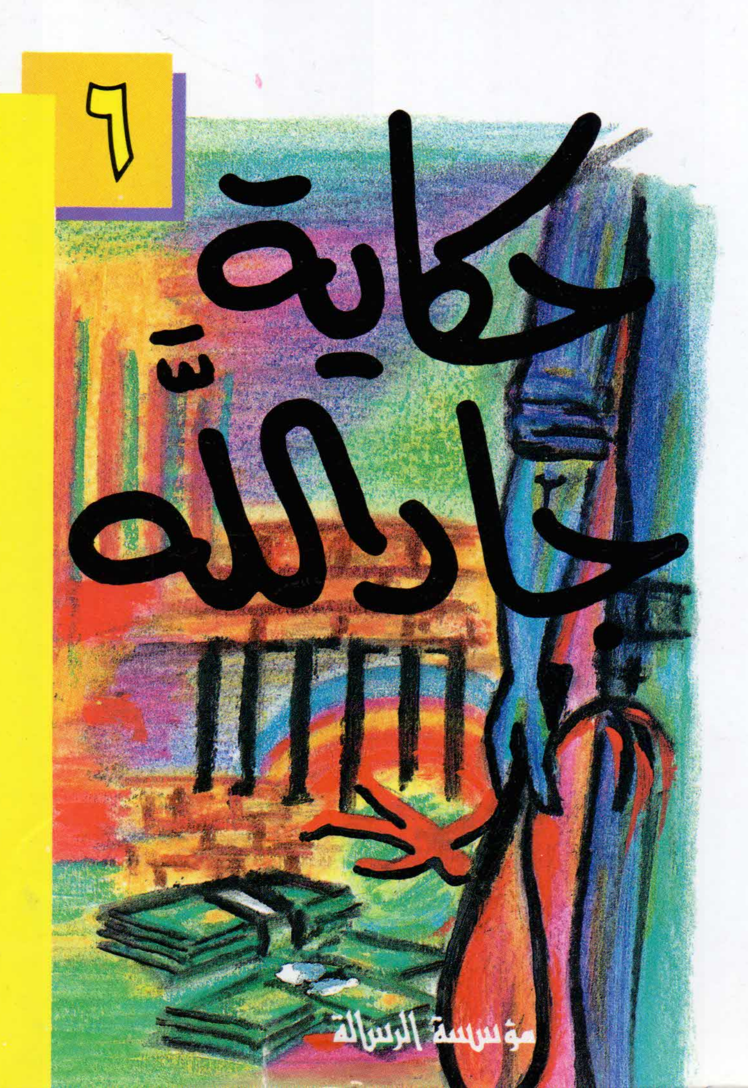
روايات
# نجيب الكيلاني

٦

# حكاية جاد الله



مؤسسة الرسالة

تطلب جميع منشوراتنا من :
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ص.ب. ٧٤٦٠ - برقياً : بيوشران

# حكاية جاد الله




مؤسسة الرسالة

غاية في كلمة

للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة

شارع حبيب أبي شهلا

بنـاء المسكن

تلفاكس: (٩٦١١)

٨١٥١١٢ ـ ٣١٩٠٣٩ ـ ٦٠٣٢٤٣

ص.ب. :١١٧٤٦٠

برقياً: بيوشران

بيروت ـ لبنان

Al-Resalah

PUBLISHERS

BEIRUT

LEBANON

Telefax: (9611)

815112 - 319039 - 603243

P.O. Box: 117460

E-mail:

Resalah@cyberia.net.lb

Web Location:

Http://www.resalah.com





الطبعة الرابعة

١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م

نجيب الكيلاني

# حكاية جاد الله

رواية

مؤسسة الرسالة
ناشرون


بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

الوقت لم يزل مبكراً، لكن البيت كخلية النحل طنيناً وحركة، وقد وقف السجان الأنباشي «جاد الله» أمام مرآة الدولاب ليُحكم وضع «الكاب» على رأسه بعد أن أكمل ارتداء ملابسه الصفراء، وحذائه الأسود الثقيل، كان يبدو فتيا قوياً، وجهه يميل إلى السمرة، وصدره عريض بارز، وشاربه أسود كثيف، وفي عينه نظرات صارمة حادة، وسمع زوجه ميمونة تقول:

- « الطعام جاهز. . . »

رمق طبق الفول والباذنجان المسلوق بنظرة شذراء، وتمتم في ضيق

- « لقد حُكم علينا بالفول والباذنجان حكمًا مؤبداً . . . أعوذ بالله»

ابتسمت ميمونة ذات الوجه الشاحب القمحي، والعود النحيل وقالت:

- « يجب أن نحمد الله يا جاد الله . . . »

قال في سخرية وعناد:

- « نحمـده على ماذا ؟؟ على القحط الأبـدي . . . .

الكثيرون الآن يفطرون المربى والقشدة والبيض و . . . . . »

- « نحمده، على الصحة والستر يا جاد الله . . »

- « أنت الفقر نفسه . . »

وأخذ يجوب الحجرة الضيقة بنظراته الخانقة، وأطفاله وهم يتسابقون على اختطاف الخبز، والفراش الرث، والجدران الكالحة، والأثاث القـديم المتسـخ، والفـوضى التي تضرب أطنابها هنا وهناك، كان متبرماً ساخطا على كل شيء، رافضاً تماماً لما هو فيه، يفكر صباح مسـاء في حلّ لمأساتـه كما يسميها دائماً، ولا يضيع فرصة إلا إذا استفاد منها، كل شيء في الحياة له ثمنه، وكل شيء ممكن تغييرة، إذا توفـر العـزم والإصرار، المهم النجـاح، ولا يهم الوسيلة سواء أكانت قذرة أم غير ذلك وهو ليس شاذاً في ذلك، معظم الناس أو كلهم - كما يظن - ليس لديهم ضمير، الكل يلهث وراء المال وتحقيق الكسب، أي نوع من الكسب . . وهـو لا ينقصه شيء ذو قيمة لتحقيق آماله، لديه القوة والعقل والخبرة . .

ثم أخـرج من الـدولاب لفافة صغيرة، وحملها بعناية فائقة، وفك الحزام، ثم وضعها في جيب سحري من الصعب اكتشافه، كانت زوجه ترمقه بحذر، قالت في خوف:

ـ « ما هذا ؟؟ »

قال في بجاحة وقحة يحسد عليها:

ـ « حشيش وأفيون يا ميمونة . . »

ـ « يا خرابـــي . . . »

ـ « يا جاهلة، إن توصيلها إلى داخل السجن يعني عشرة جنيهـات . . . أتفهمـين ؟ عشرة جنيهات . . إنها تقل قليلاً عن مرتب شهر . . . ثم إن هذه ليست أول مرة . . . »

قالت وقلبها يدق من الخوف:

ـ « أخاف عليك عند التفتيش . . »

ـ « التفتيش يقوم به واحد من زملائي . . . »

ـ « الغدر طبيعة الناس . . . »

ـ « والخوف سيبقينا في الحضيض . . »

ـ « لم لا نرضى بالقليل يا جاد الله؟ »

ـ « لأن القليل لا يكفي . . . ولأنه ظلم . . »

دمعت عيناها، ثم رفعتهما إلى السماء داعية:

ـ « فليحمـك الله يا جاد الله إنـه يعلم بحـالي وحـال عيالي . . »

قهقه كشيطان وقال:

- « أنا أشتغل بالتهريب . . . وأنت بالدعاء والعبادة. . »

واندفع خارجاً، لم ينتظر حتى يفطر، ولم يستجب لإلحاح زوجه كي يأكل لقمة ويشرب الشاي مع السيجارة التي يدخنها على الريق، كان يعرف أنه سوف يتناول طعاماً شهياً في السجن، فالمسجونون يتسابقون إلى إرضائه، المرضى منهم يتنازلون له عن البيض الذي يصرفه لهم طبيب السجن، والأثرياء، منهم يشترون له من المقصف «البولبيف» والحلوى الطحينيّة والجبن، والسجائر أيضا، وفي الظهيرة يجهزون له أطيب الطعام، إنه لا يتكلف مليما واحداً داخل السجن، بل إن إدخاله للممنوعات، يجعل المسجونين يغدقون عليه، والذين يدفعون له يجدون كل حماية ورعاية، والذين لا يدفعون ينالون أقسى أنواع القهر والعقاب. . . لكل شيء ثمنه، وجاد الله يعتقد من قديم أن الرحمة والحب والتعاون كلمات جوفاء لا معنى لها في السجن، كما أنه لا يؤمن بالشعار المكتوب على واجهة السجن «السجن تأديب وتهذيب وإصلاح» الطيبون الذين يسجنون سرعان ما يسيطر عليهم الفساد والضلال، والفاسدون يزدادون فساداً، وقاموس المسجونين كلمات مختارة من الفحش والبذاءة والفجر، ذلك المكان مستنقع كبير، يطفح بالقذارة والفتن والعفونة وهذا يجعل من المسجونين - حسبما يعتقد جاد الله - مجموعة من

الحيوانـات والبهـائم أو الـوحوش الضارية، لهذا فهو يستبيح كل شيء، ولا يعـترف بالقيود القانونية، أو المواضعات الأخلاقية. . . لقـد رأى النـاس في السجن الحربي يُعذبون ويسلخون ويُقتلون، وشارك بنفسه في ذلك تنفيذاً للأوامر، ورأى الناس هنا في الليمان يعـاملون كحيوانـات، وحتى في الخـارج. . . في الشـارع. . . والـدواوين. . . والمؤسسـات، القـوي يلتهم الضعيف، والكذب والنفـاق والتـدليس يمـلأ الأروقـة، إنها لغـة العصر، يبتسمـون ويعظمون الرئيس وينحنون له، وعندما يخلون إلى أنفسهم يبصقون عليه، لينفسوا عن مشاعرهم المكبوتة. . إنهم كالمسجونين تماما. . . الترقيات الهامة للمحاسيب ولمن يرفعون عقيرتهم بالهتاف، والمكافآت للجـواسيس والمنـافقـين. . . والتقـدير والاحـترام للجميلات والمومسات. . . لا أحد منهم يفكر في الغد. . .الذي يفكر في الغد يخاف. . . والخـائف لن يحقق أمـلا. . . وحتى لو أتت لحظة الحسـاب، وانكشف الغـطاء، وتعرى المستور، فهناك ألف وسيلة ووسيلة للإفلات. . . نحن مجتمع عريق في التحايل والإفلات يا جاد الله، كل شيء مباح حتى القتل. . . نعم حتى القتل. . . . لم أترك طالب الطب المسكين حتى لفظ أنفاسه . . . . . ورقد ساكنا كحمامة برئية. . . ماذا جرى؟؟ نلت التقدير. . . وحصلت على لقب عظيم. . لم يعـاقبني أحـد، ولم يفكـر قائـد السجن في

محاكمتي، كان هذا في السجن الحربي... أين الرحمة إذن؟ وأين العدالة والوطنية والأخلاق... إن من يتدهور من فوق قمة الجبل لا يستطيع التراجع أو العودة إلى القمة لسبب بسيط لأن السقوط سهل، والصعود شاق، شاق جداً، وأنا لا أريد أن تُدمى قدماي وتتقصف أظافري.... والقمةُ ليسَ فيها شيء ذو قيمة... برودةٌ ووحدة وهدوء ... أنا أحب السقوط إلى الأرض حيث الحركة، والزحام، وكل ما تشتهيه النفس..

حينما وصل «جاد الله» إلى السجن، شدّ عوده، ورفع هامته، ودلف في ثقة واطمئنان ظاهري، كان قلبه يرتجف خوفاً، وجسده يرتعش برغم ثقل الملابس التي يلبسها، كما يتندى جبينه عرقاً خفيفا، لكن تجاهل انفعالاته الداخلية، ليست هذه أول مرة يحمل فيها الممنوعات، والزملاء من السجانة كما هو معروف يتبادلون المجاملات وليس من المعقول أن يمسك زميله متلبساً، لكن القلق يستبد به ويزداد حتى أن ريقه قد جف تماماً، واحتقن وجهه حتى شعر أن إشعاعات حرارية تنبعث منه، وخاصة حينما رأى أحد الضباط يشهد عملية تفتيش السجانه بنفسه، لقد فكر في الانسحاب والعودة إلى البيت، لكن ماذا سيقولون عنه إذا فعل ذلك؟. سوف تحوطه الشكوك، وقد يقبضون عليه، ويستدعون النيابة، لا بد أن يمضي جاد الله فيما اعتزمه.... وتمتم... يا

إلهي.. إن السقوط هو الآخر ليس سَهلاً دائماً..، أحيانا يكون أصعب من الصعود والتسلق، وأخيراً وجد نفسه بين يدي السجان الذي يقوم بالتفتيش، ابتسم في تصنع ورفع يديه إلى أعلى كما يفعل دائماً، واقترب منه حتى كاد يلاصقه، وأخذ المفتش يجري براحتيه حول جسد «جاد الله» من أعلى إلى أسفل، ومن خلف وأمام، ثم بين فخذيه، وهنا قهقه جاد الله قائلاً:

- « احذر... لقد لمست مكاناً حساساً»

وضحك الضابط، وقهقه السجانة، لطرافة التعليق، وعندئذ أعطاهم الطابط ظهره وهو يقول:

- «انتهى.... دعهم ليدخلوا لقد تأخر الوقت...»

تنفس «جاد الله» الصعداء، ودون أن يدري أخذ يتمتم بحمد الله وأشرق وجهه بالسعادة، كما رقص قلبه من الفرحة، لقد مرّ الأمر بسلام، وكأنه أنقذ من مأزق رهيب لم يكن يحلم بالفكاك منه، إنه يموت ويحيا كل مرة يخفي فيها ممنوعات ويتعرض للتفتيش، لِمَ لا يبحث عن وسيلة أخرى، وعلى الرغم من أن جاد الله يعادي الخوف، ويعلن ذلك أمام الجميع ويتباهى به إلا أنه في هذه اللحظات الحرجة بالذات يشعر أنه يكاد يغمى عليه من الخوف.

قبل أن يفتح الأبواب للسجناء، قصد زنزانة السجين «محفوظ» أولاً،

ثم أخـرجـه وحـده، ومحفوظ سجين معروف، وهو بمثابة المساعد الأول للأمباشي جاد الله، يعاونه في فتح الزنازين وفي إغلاقها، وفي عمـل الإحصـاءات اليومية للمسجـونـين، وفي توزيع الـطعـام، وتنـظيف العنبر، وهو ـ وذلك هو الأهم ـ واسطته أو مندوبه، في توصيل الممنوعات لأصحابها وتقاضي الثمن، ومحفوظ سجين قديم، حكم عليه في العديد من القضايا، ودخل السجن بضع مرات، فهو مستوعب تماماً لنظام السجن والحياة فيه، والأخلاقيات التي تحكمه. . . .

تسلم محفوظ «الأمانة» الملفوفة، ثم عاد إلى زنزانته كي يدبر أمره، وبعد فترة وجيزة جاء ليفتح الأبواب مع «جاد الله» تحسس جاد الله ورقـة الجنيهـات العشرة في جيبـه، شعـر بالارتياح والدفء وأخذ يدندن ببعض الأغنيات الشهيرة، لم يكن يفقه لها معنى، لأنه غير حريص على ذلـك، إنـه فقط يريد أن يشغـل نفسـه بصوته وهو يدندن، وازدحمت الطرقات بالسجناء وهم يحملون « جردال» البول والماء، ويتقاطرون على دورة المياه، وقال جاد الله باشمئزاز بالغ :

ـ «رائحة قاتلة . . أعوذ بالله . . إنها كرائحة الحمير الميتة . . متى يتوب الله علينا من هذا العذاب؟»

وأطبق على فتحتي أنفه بإبهامه وسبابته وعلق محفوظ الواقف إلى جواره

قائلاً:

ـ «والله أنت خسارة كبيرة يا جاويش جاد الله... أنا وحدى الذي يعرف قيمتك..»

ـ «وما الفائدة؟؟»

اقترب محفوظ منه أكثر، حتى كاد يلامس أذنه.. وقال:

ـ «ألم تفكر بعد؟»

ـ «فكرت كثيراً... لكن..»

ـ «لكن ماذا؟؟ تزييف العملة سهل جدا.. لا يحتاج لمجهود.. ويدر دخلاً كبيراً في أقصر مدة ممكنة..»

ـ لكنهم قبضوا عليك يا محفوظ، وها أنت تدفع الثمن من شبابك..»

ـ «أقسم لك... كانت وشاية..»

ـ «ولم لا يحدث لي ما حدث لك؟»

ـ «أنت غيري.. أنت حكومة، ولن يشك فيك أحد، وستظل بعيداً عن أعين الرقباء، ما عليك إلا أن تطبع.. وتسلم الأوراق «لانتصار» انتصار زوجتي... وهي تعيش في مكان جديد آمن كما قلت لك ولا يعرف مكانها إلا أخلص الخلصاء.. خاصّة

الخاصّة. . . لن تكون مسؤولاً عن ترويج العملة. . . افهمني. . .
إن «انتصـار زوجتى تنتظر. . ما عهدت فيك خوفاً قبل. . . وفي
شهور قليلة تستطيع أن تستقيل وأن تترك هذه المهنة الملعونة. . . .
وتشتري فيلا أنيقة تعيش فيها. . . وتملك أن تشتري عشرة أفدنة في
لمدكم. وتركب سيارة أنيقة. . ليس هذا حلمًا. . . لقد استطعنا أن
نفعل ذلك لولا أولاد الحرام، ومن أن تحقق ما تشتهيه يا جاد الله
ـ« عليك أن تسلم الماكينة» من جديد لانتصار! ! ويمضى
كل لحال سبيله. . . افهمني يا جاويش جاد الله. . إن المسألة أبسط
بكثير مما فعلته اليوم وتفعله من وقت لآخر، إنك تحضر لنا كل
الممنوعات، فهل يصعب عليك تشغيل ماكينة الطباعة؟؟ »

كان جاد الله يستمع إليه بإمعان، وتمتم،

ـ « أعرف أنني وغد «جسور» لكني لا أريد أن أفقد كل
شيء. . »

ـ « مجرد أوهام. . »

أطال جاد الله النظر إليه، ثم قال:

ـ « سأتخذ قراري. . . . »

ـ « إذن أولاً إلى انتصار. . مجرد زيارة. . إنها تنتظرك. . . »

ـ « لا بأس . . »

هبّ جاد الله واقفا، ثم أخذ ينفخ في صفارته، ويهتف بأعلى صوته:

ـ « الجبـل . . . الجبـل يا بهايم . . »

## (٢)

سمع صوتها من الداخل يترقرق بالميوعة والدلال المثير:

ـ « تفضل يا حضرة الصول.. البيت بيتك.. »

سَرت القشعـريرة في جسده، ارتبك وسعل، ثم انفتح الباب عن وجـه كالقمر، تكسوه نضارة طبيعية، وعينين جميلتين فيهما وحشية وعنف وجرأة

ـ « أظنك الست إنتصار.. »

وجاءت ضحكتها المتكسرة لتزيده ارتباكاً:

ـ « ينصرك الله على من يعاديك ... أعرفك ... رأيتك كثيراً ... حضرة الصول «جاد الله» حدثني عنك زوجي «محفوظ» كثيراً... وكنت ألمحك أثناء زيارتي له في السجن.. »

وأخذ يحدثها وهو يرتشف كوب الشاي الساخن عن اهتمامه بزوجها، ومساعدته له في كل ما يطلب، وتوفير كافة أسباب الراحة له في السجن، وأبدى إعجابه بشهامته ورجولته، بل وشجاعته الخارقة أيضا..

كانت انتصار تروح وتجيء دون كلفة أو تصنع، لقد تركت شعرها الأسود الفاحم متهدلاً على كتفيها، وطوق قميصها الواسع يبرز جزءاً من مفـاتنهـا الصـارخة، ووجد الصول جاد الله ـ أو بتعبير أدق

الأنباشي جاد الله، لأنه لا يحمل على ذراعه سوى شريطين لا غير ـ وجد نفسه يقارن بين انتصار البضة الفاتنة، التي تدفق حيوية وجمالاً وبين أم عياله «ميمونة» التي ترهلت وضمرت وشحب وجهها، ودق قلبه، الخواطر الآثمة تفح في روحه فحيحاً،لعنة الله على العمل في السجون.

إنه لا يرى طوال اليوم سوى السترات الزرقاء، والوجوه الكالحة، والجبل الأغبر، ولا تسمع أذناه غير هدير السباب والشتائم المقزعة، وأوامر رؤسائه الضباط واحتقارهم له، وتعاليهم عليه، عالم كله فساد وقذارة وقهر، ما أبشع تلك الحياة!! فإذا عاد إلى منزله وسط مساكن السجانة، وجد النوم يغالب زوجه، والاولاد يرفعون صوت المذياع، ويتشاجرون ويسخطون ويصرخون، وكل واحد منهم يطلب شيئاً، وأفاق من شروده على صوتها الحنون:

ـ « إنني في محنة... وليس إلى جواري أحد»

ـ « وأهلـك ؟؟

ـ « مات الـوالدان منذ زمن بعيد .. والإخوة والأخوات ساحوا في الدنيا الواسعة ... ليس لأحد عنوان..»

ثم هزت كتفيها في سخرية قائلة:

ـ « وحتى لو عرفت مكانهم ... فإن الموقف لن يتغير..»

- « لا بد وأن يساعدوك . . »

فهقهت بمرارة :

. . « كل يبحث عن نفسه . . . ويحفر الأرض بأصابعه ليجد الرزق . . . يكفي كل واحد منا ما يحمله من هموم . . دعني أصنع لك فنجالاً من القهوة المضبوطة . . »

لم يبد عليه أي أدنى اعتراض، ولعله سعد بهذا الاقتراح الوجيه، إنه سعيد بهذه الجلسة، إنه يمشي رويدا رويداً كل شيء في العالم الآخر، وينحصر عالمه الآن في هذه الحجرة الضيقة الدافئة، والتي لا تحوي سوى أثاث بسيط منسق جميل، وفي جنباتها يفوح أريج من نوع غامض يبعث موجات خفيفة في جسده، وحينما مدت له يدها بفنجال القهوة تسمرت عيناه على الأساور الذهبية والساعد الفاتن، والأنامل الرقيقة المخضبة،

ووجد نفسه يقول دون مقدمات، وبدون مناسبة مفهومة :

-« أطلقوا عليّ وحش السجون الحربية . . . أتعرفين!! »

لمست كتفة الضخم في رقة غريبة وقالت :

- « مع أنك وديع لطيف، تبدو على وجهك الطيبة . . »

هتف في إصرار:

- « لا تغرنك المظاهر.. فأنا صعب... لا أخاف أحداً... »

وأخذ يرتشف جرعات من القهوة، ثم يتنفس الصعداء، و يبدي المزيد من الارتياح والاسترخاء. ثم قال في هدوء غريب:

- « البطولة هراء ... والمبادىء هراء ... »

قالت وهي تتصنع البلاهة:

- « لا أفهمك.. »

أشار بسبابته اليمنى إلى حذائه الأسمر الضخم في افتخار وقال:

- « لقد كانوا يقبّلون حذائي هذا.... »

- « مـــن ؟؟ »

- « باشـاوات ... وبكوات ... وعلماء ... وزعماء، كنت أشويهم بالكرباج وأركلهم بحذائي هذا حتى يعترفوا.... »

- « يعترفوا بماذا ... »

- « بأي شيء .. نعـم أي شيء .. حتى ولـو كانـوا أبرياء .. »

- « حـــرام ... »

ضحك ضحكات متتالية، حتى دمعت عيناه وهو يقول:

- « وهل هناك أبرياء في هذا الزمان؟ العالم كله ملعون . . لقد طوفت بالسجون كلها على مدار عشرة أعوام، فلم أجد فيها إنسانا طيبا محترما. . . »

قالت في دلال:

- « وزوجتــك. . . »

قهقه في ازدراء:

- تقصدين تلك البقرة ؟؟ حياتها أكل وشرب وعمل ونوم . . ولا تعرف عن الدنيا شيئـاً له قيمة . . إنها كالسجان تؤدي كل شيء حسب النظام والأوامر . . .

وعندما ألمحت إلى أنه هو الآخر سجان، نفى ذلك بشدة، إنه يلبس بدلة العسكري، لكن في داخله طموحات وأفكارا مغايرة تماما، إن الحياة في نظرة تقلب الموازين، وتغمط الكفاءات حقوقهم، إنه يفهم أكثـر من مائـة ضابط من رؤسائه، ولولا قلة المال، وضياع فرصة التعليم لأصبح اليوم عضوا بارزامن أعضاءمجلس الثورة، ولا لتهبت له الأكف بالتصفيق، وشقت الحناجر له بالهتاف، وتصدر المحافل والاجتماعات ولأصبح على الأقل « المشير جاد الله ». . .

ضحكت، فاستطرد قائلاً:

- « قد يبدو اسمي نشازاً بعض الشيء. . . »

- « لا أقصد . . . »

- « ماذا تعنين إذن ؟؟»

- « لقد فعلت القهوة فعلها . . »

قال في دهشة:

- « ماذا بها ؟؟»

- « شيء بسيط للانسجام والإنعاش»

- « ملعونة!! حشيش ؟؟

- « هذه عادته. . أعني محفوظ . . »

وجلست على ركبتيه، وأحاطت عنقه بذراعيها . . . »

## (٣)

عاد إلى بيتـه قبيل الفجـر، كان يترنـح وقدماه لا تكادان تحملانه والطريق يطول، والزمن يمتد، ومسجد على الطريق يقبع في سكون وقبته بيضاء تشع معاني غامضة؛ ارتجف من الخوف، وتفصد جبينه عرقاً . . وصرخ بأعلى صوته:

- « إنني أرى الله . . . . أكاد أحترق »

وانتزع قدميه من الأوحال وجرى . . . ثم جرى وهو يلهث . . خيل إليه أن شياطين الأرض تجرى وراءه، وإن هي أدركته فسوف تحطم رأسه، وتمزق جسده، وهو حريص على الحياة . . لا يريد أن يموت أو يتعذب، صرخ مرة أخرى:

- « أنجدوني . . أغيثوني . . اللصوص . . »

شعر بيد في الظلام تقبض على ذراعه بقوة، هتف في رعب:

- « من أنت ؟؟»

- « اطمئن غفير الدرك . . . »

- « لا تتركنى . . أنا أخوك . . . »

مسح خفير الدرك على شاربيه قائلاً:

- « فعلتها يا جاد الله . . يعني حاميها حراميها . . »

ـ« أقسم كانـوا يطاردونني . . .»

ـ «ورائحة الكحول هذه . . . »

ـ « لا . . لا . . مستحيل . . »

ـ «عيني على الرجال حين يسقطون . . »

وأخذ جاد الله إلى منزله، ثم انصرف. وبقي جاد الله أمام الباب لحظات، وأخذ يدق في تراخ، جاءه صوتها من الداخل:

ـ « أليس معك مفتاح؟؟ »

ـ « افتحي يا بهية . . »

وسمع خطواتها المتثاقلة تدق على الأرض، وعندما دلف إلى الداخل لاهثاً. نظر الى ما حوله كان الضوء خافتاً. والاولاد والبيت مبعثرون هنـا وهنـاك على سجادة مهترئة، والأغطية البالية تلفهم، وقفص للدجاج هناك في ركن قريب، وأذن الديك فجأة فأثار الرعدة في جسده، فصرخ في غضب وعيناه محمرتان:

ـ « هل هذا مكان للفراخ . . »

ـ « إنها هنا من قديم . . »

ـ « إنه شيء فظيع . . فظيع . . ألا تفهمين ؟؟»

طارالنوم منعينيها، أدركت بحسها أن الأمر ليس طبيعياً، وأن شيئا

ما لا بد قد حدث لزوجها، ليست هذه عادته ولا طريقته، داخلها خوف مبهم، وانتابتها الوساوس من كل جانب، إنها تنظر إليه فتجد إنسانا آخر غير الذي تعرفه.

ـ « جاد الله . . »

ـ « ماذا تريدين من جاد الله . . ؟»

ـ « أين كنت ؟؟ »

هرب من نظراتها، وأخذ يخلع سترته وحذاءه ويلبس جلباب النوم وينشغل بأمور تافهة وهو يردد:

ـ « كنت في مأمورية . . »

ـ « مأمورية ؟؟ لا أصدق . . أنا أعرفك . . أنت لم تخبرني . . »

ـ «كانت مفاجأة . . أو كنت تظنين أن أرسل إليك برقية، أو أبعث «تلكس» أو أكلمك في التليفون . . بالمناسبة كم رقم تليفوننا ؟؟؟ ها . . ها . . ها . . »

اقتربت منه وسددت إليه نظرات فاحصة، وجسدها يرتجف:

ـ « قال زملاؤك أنك خرجت معهم . . »

ـ « أهو تحقيق رسمي إذن ؟»

- « أنا شريكة حياتك . . »

مد إليها وجها غاضبا، وعيناه تقدحان بالشرر:

- « ليس لي شريك . . . أنا حر . . »

- « منذ متى ؟؟

- « منذ أن خلقت . . »

ظلت عيناها مفتوحتين مسددتين صوبه، وهو يتحرك بلا وعي في الغرفة الضيقة كفأر حبيس في مصيدة، ولما شعر بالتعب ألقى بجسده المنهك على السرير الخشبي.

- « هل تأكل يا جاد الله؟؟»

- « لا . . ... »

اقتربت منه في ود حزين دامع، أمسكت بيده ثم رفعتها إلى فمها وقبلتها، نظر إليها في ألم دفين ، ثم سحب يده في رفق، وتحول إلى الجانب الآخر، كان يزفر في ضيق ، وتمتم:

- « ليتني أموت »

- « بعد الشر عنك، لماذا ؟ »

- « لا يعجبني شيء في الحياة . . »

- « المهم أنت . . . . »

ـ « أنا؟ هه . . من أكون ؟؟ ثور أحمق يدور في ساقية . . وأتعاطى كل يوم طنا من المخدرات . .

ـ « يا خرابي . . مخدرات ؟؟»

ـ « أجل . . مخدرأت اسمها الصبر . . القناعة . . الطاعة . . النظام . . الشرف . . الكرامة . . وأعيش في غيبوبة . . ولا أعرف شيئاً . . ماذا تعرفين أنت ؟؟ الأولاد . . الأكل . . النوم . . غسيل الملابس . . كلنا ثيران يا ميمونة . . »

ـ « أقسم أنك شربت شيئاً . .

وتناهى إلى سمعها غطيطه المميز، من حسن الحظ أن الغد هو يوم الجمعة، وإلا كيف كان في مقدوره أن يذهب إلى العمل، ويخرج مع المسجونين إلى الجبل وهو على هذه الحالة من الإعياء والتوتر. وغادرت ميمونةالغرفة ، وهي تمشي على أطراف أصابعها، ثم أغلقت عليه الباب في هدوء بعد أن أطفأت النور، كانت تقول لنفسها إن علاجه هو الراحة والصبر هي تعرف أنه عنيد حادّ العواطف، سريع الغضب والعنف، لكنه سريع العودة أيضا الى الهدوء ، هي تذكره أيام السجن الحربي، كان يأتي إليها ويشرح لها تفننه في تعذيب السياسيين وخاصة الباشاوات والإخوان المسلمين، وكان يفتخر بأنه الوحيد الذي سجل الأرقام القياسية في سرعة انتزاع

الاعترافات وعندما كانت تتألم وتستنكر عمله، كان يؤكد لها أن هذا التصرف منه واجب وطني يمليه عليه ضميره وإخلاصه لبلاده وقيادتها، لأن المعارضين خونة متمردون، ويتعاونون مع أعداء البلاد من يهود وإنجليز وأمريكان، ثم إنه كرجل عسكري لا يستطيع أن يعصي الأوامر التي أصدرها الرئيس ونقلها إليه المسؤولون الكبار، وكان يقهقه وهو يؤكد لها أن البلد ممسوكة بيد من حديد. وأن الاجراءات الحازمة ضرورية لأمن البلاد وتقدمها وصمودها أمام أعدائها الكثيرين، وأن الحمقى من رجال الفكر والسياسة والشباب لا يفهمون الأمور على وجهها الصحيح ... لكن ميمونة تذكر أيضا أنه عاد ذات ليلة من السجن الحربي .. وكانت حالته في منتهى السوء، لم يكلمها هذه المرة عن الخونة والنظام والأوامر والقضاء على الرجعية والاستعمار، لكن جلس صامتا أمام الطعام .. وظل شارداً بضع لحظات، ثم ... ثم انفجر باكيا، كانت تراه يبكي لأول مرة منذ أن تزوجته، بل إن أفظع الكوارث لم تكن لتجعله يدمع دمعة واحدة .. يومها سألته:

- « ماذا بك .. كفى الله الشر؟»

قال وهو يشهق باكيا:

- « لقد مات .... »

- « من يا جاد الله ... المدير؟؟ فلم يهتم بسؤالها

واستطرد:

- « ضربته على رأسه فمات .. لم أكن اتصور أن يحدث ذلك ..»

وهبت مذعورة:

- « إذن سيقبضون عليك، ويقدمونك للمحاكمة، وتفقد وظيفتك التي نعيش من مرتبها ... يا للكارثه !! »

وتمتم:

- « اطمئني على الوظيفة .. لكن أنا .. لقد كان الضباط يضحكون .. ركلوا الضحية بأرجلهم ... كان شابا صغيراً لا يتجاوز التاسعة عشر ... من طلبة الجامعة لا أعرف اسمه .. قالوا أنه عضو في الجهاز السري .. أنا يا ميمونة لا اعرف ما هو الجهاز السري ... كتبوا أمام اسمه « هروب » ... واستمروا في عملهم كالمعتاد .. قالوا لي .. استلم سجينا آخر ولا تتركه إلا إذا اعترف أو مات .. أنت بطل يا جاد الله ... من اليوم سنطلق عليك اسم « وحش السجون الحربية » ، لكنه مات .. أيمكن أن يكوم مظلوماً؟؟ كان المسكين يتوسل إلي ويقول لي إنه بريء ولا يعرف أي شيء عن الأمور التي يسألونه عنها، وأنه وحيد أبويه، وأنه طالب في كلية الطب، وأن أباه باع الفدانين اللذين يملكهما في

القرية حتى ينفق عليه كي يتم تعليمه . . كان في السنة الثانية . . قلت له اكتب لي يا ولـد دواء يقويني ويساعدني على السهر حتى استمر في تعذيبهم . . تصوري واخرجت له ورقة وقلما وكتب . . انـظري هذا هو الدواء . . أحضروا لنا يا ميمونة أحد العلماء المخلصـين . . وأفتـوا لنـا أنـه يجوز شرعاً معاقبة المفسدين في الأرض وقتلهم وصلبهم . . . وعندما مات سقط قلبي من الخوف . . إنها أول مرة أقتـل فيهـا إنسـانا . . من لا ينفذ الأوامر على المسجونين يصير مثلهم . . . من لا يقتل يقتل.

وبينما كانت الذكريات تستولي على رأس ميمونة سمعته يصرخ :

- « ميمونة »

- « رأسي يكاد ينفجر . . . »

شرب الشاي. وتناول الاسبرين، ثم عاد للنوم وعادت ميمونة مرة أخرى لأفكارها وهواجسها وهمومها، إن ما يحدث اليوم لزوجها يشبه إلى حد كبـير ما حدث له بالأمس، برغم تغـير المظاهر الخارجية للمأساة، لكن ميمونة واثقة أن جاد الله سوف يعود في وقت قصير إلى حالته المعهودة، تماماً كما حدث في الماضي، لقد نسي مأساة موت الشاب، وخاصة بعد أن نال ترقية، واستمر في أسلوبه القاسي مع المعتقلين آنـذاك، وكان يفرح بالمكافآت السخية التي تغدقها عليه

الرئاسة، كما كان يحصل مبلغاً لا بأس به من تهريب خطابات المعتقلين للخارج .. الخطابْ بخمسة جنيهات كاملة .. إنها تضاهي نصف مرتبه الشهري، وكان جاد الله يبتسم ويقول أرزاق وإلا فكيف يطعم هذه الأفواه الجائعة ... وكان يخفف التعذيب عن بعض المعتقلين إذا دفعوا المعلوم، وحتى بعد أن ترك السجون الحربية، واستقر به المقام في السجون المدنية، ظل مواظبا على الاستفادة من الخدمات الغير مشروعه التي يقدمها للسجناء الليمان، وإن كان نقل الخطاب أصبح بجنيه واحد وإدخال المخدرات بعشرة جنيهات، وتهريب الممنوعات الأخرى بالثمن المناسب ...

إن أحداث السجون الحربية أصبحت مجرد ذكرى، لقد تألم في البداية وهو يمارس ألوان التعذيب، ويقتل أحيانا، لكن الأمر بعد ذلك اتخذ صفة العادة، فلم يعد يأبه لمن يموت أو يتألم أو يصاب بعاهة، وإذا حاول ضميرة أن يصحو مرة أخرى، فإنه سرعان ما يجد المبررات، ويلتمس المعاذير، إذ أن رؤساءه هم أصحاب السلطة العليا وهم الذين يفهمون مصلحة البلد، وينفذون السياسة المرسومة، وهم الذين يأمرون ... فلا ذنب له ... هل سيدخل الله «عشماوي» النار لأنه ينفذ أحكام الاعدام التي يصدرها القضاء ؟؟ إن موقفه مثل عشماوي تماماً ... وجميع زملائه السجانين نفس الشيء ... فلماذا يتعب باله، ويؤرق ضميره،

ويتعذب بلا مبرر . . هكذا فلسف « جاد الله » الأمور، وارتاح لذلك التصور السلس المبسط، لكن الشيء الذي أثلج فؤاده، وجعله يمشي بين أقرانه في السجون الحربية منتفخ الأوداج هو اللقب الذي أنعموا به عليه « وحش السجون الحربية » . . كان هذا اللقب أسمى وأروع من لقب « الباشا » الذي تم إلغاؤه . . وكان نيتشي وهو ممسك بالكرباج ويسأل المعتقلين قائلاً:

ـ« من أنا؟؟»

فيردون بصوت هادر كالرعد:

ـ « وحش السجون الحربية . . يا أفندم . . »

ويظل يسأل، ويسمع الجواب، مراراً وتكراراً، وزملاؤه يضحكون، والضباط يبتسمون.

ويتذكر«جاد الله» أنه ذهب الى ضابطه ذات يوم،ودق الأرض بحذائه الثقيل، وأدى التحية العسكرية، ثم قال:

ـ « لي طلب يا أفندم »

ـ « ترقية أخرى يا جاد الله ؟؟ »

ـ « لا يا أفندم . . . »

ـ « قل بسرعة . . . »

ـ« أن يظل لقب « وحش السجون الحربيه » لي وحدي . »
قهقه الضابط حتى كاد يستلقي على قفاه، وهو جالس في مقعده، ثم قال بهدوء:

ـ « لك ذلك . . . »

ـ « شكراً يا أفندم . . »

ثم قال الضابط مردفاً:

ـ « ما دمت ملتزما . . »

ـ « كل الالتزام يا أفندم . . . »

وصمت الضابط برهة ثم قال بجدية :ـ

ـ « ألا يؤنبك ضميرك يا جاد الله ؟؟ . . »

ـ « أبداً يا أفندم . . هذا شرف عظيم يا أفندم . . »

لوى الضابط شفته السفلى وقال:

ـ «أنت ممتاز يا جاد الله . . . وأيضا . . . حيوان يا جاد الله . . »

ـ «ماذا ؟ حيوان يا أفندم؟؟»

ـ « نعم هل غضبت ؟؟ »

قال بسرعة.

ـ « لا .. لا .. يا أفنـدم ... مقبولة منك ... كل كلامك على العين والرأس يا أفندم .. أنت سيدي وتاج راسي يا أفندم .. كل كلامك خفيف وظريف يا أفندم ..»

وأراد جاد الله أن يخرج فدق الأرض وأدى التحية، لكن الضابط طلب منه الانتظار وسأله:

ـ « ماذا كنت تعمل قبل الجيش ؟؟ »

ـ « سائس في اصطبل علوي باشا يا أفندم .. »

وابتسم الضابط وهو يقول:

ـ « أصيل يا جاد الله !! وأبوك ؟؟ »

ـ « شيء مخجل يا أفندم .. »

ـ « تكلم يا جاد الله ... وإلا ... »

ولوح له الضابط بكرباج كان موضوعاً فوق مكتبه ، فقال جاد الله على الفور:

ـ « سأعترف يا أفندم ..»

وضحك الضابط، وقال جاد الله :

ـ « في بار ومرقص «دينا» الفنانه دينا ...»

ـ « طبال ؟؟ زمار ؟؟ رقاص ؟؟ »

- « لا . . . فتوة يا أفندم (حارس خاص ) بودي جارد . . »

ودق جرس التليفون، فقال الضابط وهو يمسك بالسماعة :

- « مع السلامة يا وحش السجون الحربية . . »

( ٤ )

في اليوم التالي لم يستطع (جاد الله ) أن يذهب الى المسجد لاداء صلاة الجمعة مع زملائه السجانة ـ ومن المعروف أنه كان يحرص على صلاة الجمعة فقط كل اسبوع، على الرغم من أنه لم يكن يفهم من الخطبة أو الصلاة شيئا، كان يظل طول بقائه في المسجد شارداً، لا يستطيع أن يتابع ما يقوله الخطيب، فهو دائم التفكير في المستقبل، وفي جمع المال، والبحث الدائب عن فرص الكسب والنمو من أي طريق، لكنه هذه المرة تعلل بالمرض، كان يريد أن يظل حبيس البيت، حتى يجد الفرصة المواتية للتفكير ، إنه مقدم على عمل خطير، إما أن يصعد به إلى أوج السماء، أو يهبط به إلى حضيض الضياع الأبدي ، فالأمر يحتاج إذن الى تفكر وتدبر وهدوء، وليس من المصلحة أن يقدم على هذا العمل الخطير دون تروٍ ودراسة مستفيضة، لقد كتم الأمر عن كل من حوله، حتى خاصته، فزوجه ميمونة لا تعرف شيئاً، وكذلك أصدقاؤه المخلصون، اثنان فقط يعرفان هما (انتصار) وزوجها السجين ( محفوظ )

كان المؤذن يتغنى فوق المسجد قائلاً :

ـ « لقد فاز بالرضوان من سمع النداء ولبى مجيبا . . »

أما جاد الله فقد بقي مضطجعا على سريره، ومعه قلم رصاص وورقة انتزعها من كراسة ابنته، واخذ يجري بعض العمليات

الحسابية البسيطة من جمع وضرب وطرح فقط، لأنه لم يكن يعرف القسمة جيداً، وإن كان يعرف القراءة والكتابة بدرجة مقبولة، ويحفظ بضع آيات من القرآن، لكن ـ وهنا وجه الغرابة ـ يشترك في الإفتاء لزملائه السجانين، حتى أنهم أحيانا كانوا يطلقون عليه الشيخ جاد الله . . وكان يستفيد من بعض المناقشات التي يسمعها هنا أو هناك، أو بعض الآراء التي نقلت إليه شفاها، وكأنه يجتهد عابثا في ابتداع بعض الأحكام الخاطئة التي لا أصل لها، ويحاول في استماتة أن يدلل على وجهة نظره بأساليب المكر والدهاء والتلاعب بالألفاظ، كما كان يردد بعض الشعارات السياسية التي يسمع عنها في الإذاعة، أو يلتقطها من أفواه المساجين، أو يسترق السمع إليها عندما يتحدث الضباط . . . أو يتلقفها وهو راكب الترام أو القطار أوالحافلة . . . ومن تلك النفايات الفكرية، والمخلفات الثقافية صنع لنفسه فلسفة أو وجهة نظر أو رأيا، ويتشبث بها يقول أو يعتقد في إصرار وأنانية لا نظير لها . . . لكنه كان يبدو أمام زوجه وأطفاله وكأنه عالم العلماء، والفهامة الذي لا يدانية أحد، ويسخر من فقه الفقهاء وجعجعة المثقفين.

قال لزوجه وهو يتناول طعام الغذاء بعد الجمعة:

ـ « الدنيا تتحرك . . . تجري بسرعة . . . والأولاد يكبرون . . . ونحن ما زلنا ثيرانا ندور . . . وندور حول الساقية بلا نهاية، هل كتب علينا أن نظل ندور حتى الموت ؟؟ »

فهمت بفطرتها أن الأمر غير عادي :

ـ « ادخل في الموضوع مباشرة . . »

ـ « أقول يجب أن نتحرك . . »

قالت: « إلى أين ؟؟»

قــال « هذا هو السؤال »

فهمت ميمونة أنه ربما يفكر في مشروع ما، يستغل فيه ما ادخره من مال المسجونين طوال السنوات السابقة، وبدا الأمر لها بسيطاً غاية البساطة، ولا يصح أن تلابسه تلك الحيرة القاتلة التي ترتسم على وجه زوجها، لهذا قالت:

ـ « الأمر بسيط . . . »

ـ « كيـف ؟؟ »

ـ « نشـتري قطعة أرض صغيرة في (طرة)، ونبني بيتا . . أنت تعلم أن أزمة المساكن خانقة . . . وجميع المستأجرين يدفعون الخلوّ المقدم . . . »

لم يرد عليها، كان غارقا في التفكير، على الرغم من أن فمه يلوك الطعام، ولما رأته معتصما بالصمت قالت:

ـ « وأستطيع أن أبيع ميراثي من أبي وأمي في القرية . . هذا سوف يساندك كثيراً . . .

ولما لم تجد منه جوابا، أمسكت بيده وهزته قائلة

- « اصح ... هه .. هه .. »

التفت إليها كمن يفيق من حلم:

- « إنني يا ميمونة أبحث عن طريق غير مألوف .. »

قالت هي تحذره:

- « جاد الله امش مستقيم يحتار عدوك فيك .. »

- « جميع الطرق الآن ملتوية يا ميمونة .. »

- « لا تجلب علينا المصائب .. »

- « الخائف يظل واقفا ... والناس تجري ... »

- « أريد الأمان يا جاد الله لنا ولأولادنا .. »

- « المال أمان .. »

- « لكنه لا يدوم .. »

- « إنه يدوم يا بلهاء .. ويتوارثون جيلاً بعد جيل .. لو كان عندي المال من البداية لما عشت في ذل ... ولما قتلت ... وارتشيت ... وكذبت ونافقت ... أتعرفين يا ميمونة أننى فيلسوف ؟؟ سمعت أحد الخطباء يقول العمل فضيلة .. فقلت له المال فضيلة .. وحدث هرج ومرج .. وقهرته في المناقشة .. لم

يستطع أن يرد علي .. أنا أفهم الحياة أحسن من أي إنسان ..»

قالت في خوف:

- «لا أفهمك !! أعرفك لا تطيق الصبر .. والدنيا لم تبق في ساعة واحدة .. والعمر طويل .. ماذا يقلقك ؟؟ إننا نأكل ونشرب ونلبس وأولادنا يذهبون إلى المدارس .هل ينقصك شيء؟؟ »

- «نعم .. ينقصني الكثير .. تنقصني الكرامة مثلاً .. لو عندي مال لكان أول شيء فعلته هو إحراق هذه البدلة الصفراء .. هل سمعت عن الحذاء الشمواه .. والصوف الإنجليزى والنظارة البير سول .. والجرفته السلكا؟؟ ومعطف الفرو يا ميمونة ؟؟ طبعا لا تعرفين .. رأيت زوجة مدير الليمان ... كانت تركب سيارة ستة أمتار .. الحرس يجرون حولها ... تمشي في أنفة مثل ملكة تلبس الحرير... وتفوح منها رائحة المسك .. تلك هي الحياة الحقيقية يا بنت «بنت مدبولي».

حالة جاد الله تتغير من يوم إلى آخر، لقد أصبح إنسانا آخراً، أو وحشاً من نوع آخر غير ذلك الوحش الذي ازدهى غروراً وكبرياءً في السجون الحربية، إن عملية التحول التي تجري في داخله قد تركت بصماتها على تصرفاته وأقواله وحركاته، أصبح كل شيء قذراً مقلقا كئيبا في نظره، إنه يريد حياة غير الحياة، وموقعاً غير الموقع

الذي زرعوه فيها، لقد افتقد العدالة منذ أن كان طفلاً، كان أبوه « كلب حراسة » كما زعموا، وكانت أمه مثار الشبهات، أما هو فقد تعامل مع الحيوانات . . . والخيول بالذات . . . وفي الحظائر المتكنة كان يحلم أحلاماً قذرة أحيانا، وأحلاما وردية أحيانا أخرى، وعلمته الخيول الصبر . . كما علمتة استخدام الشدة، في كبح الجماح عند الضرورة، كان يرى سيدة القصر وبناتها وأبناءها فيسيل لعابه، وكان يرى الباشا الكبير فينكمش كفأر مذعور.

وفي هذا الجو المشحون المتوتر، عرف كيف يكذب وينافق، ويحاور ويداور، حتى الخادمات في القصر والمزرعة كن يأنفن منه ، وظل ليالي طويلة يكتم الحقد العريق في قلبه العليل، لقد ضربوه بالسياط صغيراً، وصفعوه على وجهه وقفاه كبيراً، ويوم أن جروه إلى « التجنيد الإجباري » أقسم ألا يعود، ووجد في الجيش الكثير من الحزم والردع ، لكنه كان عاما، لم يختص به فرد دون آخر، وكان على أية حال قهر من نوع مقبول، أقل كثيراً من حظيرة الخيول والحيوانات في عزبة الباشا . . تأكد قديما أن الباشا قوي بماله وأرضه وحاشيته، وفي الجيش تأكد من قوة السلطة والرتب والنظام المفروض . . المال والسلطة هما الكرامة والشرف، ومن الحماقة بأن يبقى بلا مال أو سلطة، ولا بد أن يبحث عنهما في أي مكان، وبأي أسلوب . . وعندما اختاروه ليعمل في السجن الحربي، كشف عن ساعد

الجد، وساهم بنصيب موفور كان مهتزا في البداية، لكنه سرعان ما تأقلم، ووجد المبررات الكافية لقسوته الضاربة. . اكتشف أنه يكره رجال السياسة والعلم والمثقفين عموماً ويكره أصحاب السلطة، وخاصة القدماء منهم، أصحاب العزب واستطبلات الخيل والقصور والسيارات الفارهة . . .

قال له صديقه الأومباشي « حسنين أبو زهرة »

- « أنت على أبواب فضيحة يا جادالله»

نظر إليه في امتعاض :

- « ماذا تقصد ؟؟ »

- « ليس هناك دخان بدون نار »

- « أنا أعرف نفسي . . »

- « هذا عيبك . . عنيد المساجين يتحدثون عنك »

- « انت تعرف المساجين يا حسنين. . كلهم كذابون »

- « لكني اعرف أنك تقدم لهم الخدمات الخطرة بمقابل . . . وتوصل الممنوعات إليهم . . »

- « لو قال غيرك هذا الكلام لبصقت في وجهه . . . »

مال عليه « حسنين أبو زهرة » في انفعال وهمس في أذنه :

- « مباحث السجون ليست نائمة . . . افهم . . . لا تقامر بمستقبلك . . »

قهقه جاد الله وقال وهو يكز على أسنانه :

« أعرف مجموعة من الأوساخ . . »

- « وقيل أنك شوهدت سكرانا في الطريق العام . . »

- « هراء . . كنت عائداً من المستشفى . . . »

- « ويقال أن السجين محفوظ على علاقة وطيدة بك . . »

دق قلب جاد الله من الخوف، تلعثم، وتأتأ، لكنه تمالك أعصابه وقال في سخرية ظاهرة:

- « تعلم أنه جاسوس لي على المسجونين . . وقد درجنا كلنا على هذا الأسلوب . .»

- « إنه خبيث . . داهية . . ساومني ذات مرة . . . »

التفت إليه جاد الله في دهشة وقد ازداد اضطرابة:

- « كيــف ؟؟»

- « أنت تعرف . .»

هب «جاد الله» مهتاجاً وقال:

- « أنا واثق من نفسي . . ولن يخدعني سجين . . كلهم

أنذال »

تنهد حسنين أبو زهرة في ارتياح وقال:

- « هذا ما أردت التـأكـد منه . . . إنني أحبك وأحرص عليك كزميل . . . وأدعو لك بالهداية دائمًا . . »

وغـادره «جـاد الله» مسرعـاً، الآن فهم سر نظرات حسنين إليه، ومتـابعته لخطواته، هذا الرجل ذو حس غريب، إن حسنين رجل طيب، فتقدم في العمر، وقد خط الشيب رأسه، عندما تحدق في وجهه، تشعر أنك أمام رجل طيب مطمئن صابر، لا أثر للجشع أو الخوف أو التمرد في عينيه، حاسم دون إيذاء، منضبط في غيرما قسـوة، كالساعة في مواعيده وأعماله. يحترم نفسه ويحترم الرؤساء، والمسجونون يثقون به ، إنه نمط آخر غير باقي السجانين، إذا فرش سجادة الصلاة ، والمشاكل التي تعترضه في العمل قليلة، ويعالجها بلطف ومهارة، ولهذا فهو لا يسبب أية متاعب للإدارة، يقولون أن إبنه الأكبر تخرج من كلية الحقوق، وابنته تدرس في كلية الآداب، يقضي وقت فراغه في المسجد، يصلي أو يستمع إلى الدروس، شديد الحرص على زيارة أهله وأقاربه في الريف، لا يجامل في حق، ولا يتهاون في تنفيذ القانون، بالطريقة المناسبة التي يرتضيها ضميره . .

كان حسنين قلقا، فهو يعرف تهور زميله، والوضع الحرج الذي أصبح فيه، وكـان حسنـين ينـظر إلى هموم النـاس وكـأنها همومه

الشخصية، شيء في طبيعتـه ودمه، وإن كانت تسبب له المشاكل أحيانا، ولهذا يعتبرونه في «عزبة السجانين» العمدة .. لأنهم يحكمونه في مشاكلهم، ويعرضون عليه قضاياهم، ويرضون في امتنان بحكمه

قال الأنباشي حسنين أبو زهرة للسجين محفوظ:

- « اسمع يا ولد .. أنا أعرفك .. »

رد محفوظ مراوغاً:

- « مظلوم .. والله العظيم طول عمري مظلوم يا حضرة الصول .. »

- « لا تقسم .. أنا أعرفك .. »

- « ربنا غفور رحيم ... »

- « هي كلمة واحدة ... »

- « تحت أمـرك .. »

- « دع «جاد الله» وشأنه .. في رقبتة كومـة مـن العيال .. »

قال محفوظ في دهشة وهو يدق على صدره:

- «'أنا' أستغفر الله .. أنا ساعده الأيمن .. إساله »

سدد إليه نظرات حادة:

ـ « أنتم تسقطون به إلى الحضيض .. أعرف أنك همزة الوصل بينه وبين طلاب الممنوعات .. »

تلفت محفوظ يمنه ويسره، وقال:

ـ « هذا اتهام خطير .. جاد الله أشرف سجان هنا .. حرام . حرام يا حضرة الصول ... »

هدر حسنين في ضيق:

ـ « اسمع .. إذا لم ترتدع فسأقذف بك إلى بعيد .. أنت تعرف الواحات .. إننا نرسل مجموعة إلى هناك كل ستة أشهر هل فهمت ؟ ... »

اختطف محفوظ يده، وأخذ يمطرها بقبلاته ودموعه، ثم انحنى على حذائه، وهو يتوسل:

ـ « أنا في عرضك ... »

نحّى حسنين قدميه بعيداً، ونظر في اشمئزاز وهو يقول:

ـ « تعرف أني لا أظلم أحداً .. والإدارة تحترم رأيي .. وأنا لم أوجه إليك الاتهام إلا بعد أن تأكدت .. أتفهم ؟؟ ليس بين المسجونين سرٌ يُصان .. وأنت واحد منهم .. أنت سوابق .. ودخلت هنا أكثر من مرة .. أعني أنك خبير. لا تراوغ .. »

رفع محفوظ إليه عينين ضارعتين وقال:

- « أعترف . . »

- « أتعاهدني على حماية الرجل المخدوع . . »

- « أعاهدك . . . وهذه يدي . . »

شعر بالارتياح، فأشار إلى محفوظ بالانصراف ، كان لا بد أن ينقذ زميله من اللعبة الخطرة المدمرة، إنها لا بد أن تنكشف يوماً ما هكذا علمته تجارب السنين، لكن الشيء الذي آلمه وحزّ في نفسه، هو بعد جاد الله عنه، حتى لكأنها القطيعة، لكن حسنين لم ييأس إنه يقوم بعمله لوجه الله .

ذهب حسنين لزيارة جاد الله، استقبلته ميمونة بترحاب، إنها تعرف قدره الكبير، لكن جاد الله بدا على وجهه الضيق، كان اللقاء بينهما فاتراً، وأدرك جاد الله لأول وهلة أن المراوغة والإنكار لن تجديا مع حسنين، لهذا جلس منكس الرأس، وأخذ يرتشف الشاي في شرود، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث في حرج وتوتر ويحومان حول الموضوع الرئيسي دون أن يدخلا فيه، وكم كانت دهشة حسنين حينما سمعه يقول فجأة:

- « أنا لا أفعل إلا ما يفعله الآخرون . . »

- « دعك من الآخرين . . »

- « أتدري عما أتكلم ؟؟»

ـ « أفهم ما ترمي إليه .. إنك تحاول أن تبرر أخطاءك. »

وأخذ جاد الله يتحدث بصراحة، عن غلاء الأسعار، وقلة المرتب، والظلم البين الذي يكبل حياته . . . وحياة الناس . . ولذلك فإن الجميع يسرقون ويرتشون حتى الوزراء وعِلية القوم يفعلون ذلك، ولا وجـود للشرف في واقع الحياة، إنها مجرد كلمة يرددها الناس، ويتشـدقـون بها في المذياع والصحف والخطب، ومن يصدق هذا الهراء يموت جوعاً، قال حسنين:

ـ « أنا لم أمت جوعاً. . . »

ـ « لأنك رجل بلا طموح . . »

ـ « أنت واهم . . طموحي على قدر طاقتي . . »

ـ « وماذا تركت لأبنائك يا حسنين . . . »

ـ « تركت لهم الله ورسوله . . »

ـ « أما سمعت . . السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . . »

ـ « بل تمطر رحمة وإيمانا وأملاً . . »

ـ « كلمات لا تُسمن ولا تغني من جوع . . . »

ـ « لكنها رأس مالي . . . »

ـ « جنة من الوهم . . . »

أشـاح حسنـين بوجـه، واستغفر الله ثم دعا له، بالهدايه، وأخذ يتمتم، حينما أنظر إلى ولدي وهو حامل اوراقه، وذاهب الى مكتب احد المحامين الكبار للتدريب، أقرا فى عينه الأمل والحب ، ويأتي يقبل يدي. فأحتضنه، وأدعو له بالستر، وحينما تهل عليّ ابنتي وهى عائـدة مرهقة من رحلتها الطويله الى كلية الآداب، أستقبلها بين ذراعي، وكـأني ظامىء ينهـل من الماء الزلال بعد رحلة شاقّة في الصحراء . . أنا لم أدخر مليمًا . لكني أشعر أنني أملك كنوز الدنيا . . تلك هي السعادة يا جاد الله ، المشوار كان طويلاً ومرهقاً . . لكن ها أنت ترى الاطمئنان الذي أنعم به . . ومهما صليت وقرأت القرآن وتعبدت فلن أوفي الله حقه . .

ترقرقت الدموع في عيني « جاد الله »، لكنه مسحها في عنف، لا يصح أن يستسلم، التراجع في رأيه مشين، لقد سفك الدماء، وقتل وسرق، ومارس ألوان الخطايا . . وأصبح قاب قوسين أو أدنى من جني الثمار. أيمكن أن يتراجع في آخر الشوط، ويخسر كل شيء ؟؟ هذا مستحيل . . .

وأخذ يصرخ :

- « مستحيل . . . مستحيل . . . لقد فات الأوان . . . »

رد حسنين أبو زهرة في هدوء :

- « تلك وسوسة الشيطان يا جاد الله . . أنا أعرفه . . »

- « تعرفه ؟؟ »

- « نعم . . . »

ثم استمر حالماً :

- « طالما اعترض طريقي يا جاد الله »

- « ما شكله ؟؟»

قهقه حسنين وأردف :

- « شكلي . . وشكلك . . وأشكال أخرى . . المصيبة أنه يلبس أثواباً شتى ، ويظهر على صور عديدة . . »

- « كيف ؟؟ »

رفـع عينيه إلى سقف الغـرفـة، كانت يده تعبث بمسبحـة طويلة صفراء، ورأسه يهتز في انتظام، كمن يهوى في حلقة ذكر. واغرورقت عيناه، وهو يقول بصوت خفيض: « قد يظهر على صورة امرأة بارعة الجمال، أو صديق ناعم الملمس، حسن الحديث، وقور السمت، أو سيد فهاب مفتون ببأسة وثراثة، أو قصر كبير، أو بستان جميل، أو على هيئة بقرة . . جواد . . سيارة . . تاج مرصع بالجواهر . . هكذا قال شيخي يا جاد الله إنني أحفظ كلماته عن ظهر قلب، وشيخي عهدته لا يكذب أبداً، فهو طاهر مطهر . . عرف الله، فصغرت في عينيه الدنيا . . »

أشعل جاد الله سيجارة، وجذب منها نفساً عميقاً، وتمتم : أكان شيخك يقول ذلك، فماذا تقول أنت ؟؟

إن شيخك قد غابت عنه الحقيقة المرة .. إن معنى ذلك الكلام، أن الدنيا كليها شياطين، وأن الشيطان الأكبر يحكمها، ولا مجال لأحد غيره .. أين الملائكة يا حسنين ؟؟ الإنسان والحيوان والجماد والنبات شياطين .. أليس هذا مضحكاً ؟؟ خذ يا رجل سيجارة وابعد عن نفسك هذه الأفكار . . .

استعاذ حسنين وحوقل. ورفع السيجارة برفق معتذراً، وبدا له أنه امام رجل غارق في الحيرة من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، أو أنه قد تعرض لمس من الجنون، فغطى على سمعه وبصره، وأربك عقله، هي حالة مستعصية إذن، إن ما يعرفه عن جاد الله محدود للغاية، فهو يهرب الممنوعات ويتقاضى أجراً، أي يخرق قانون السجون، حتى يحقق نفعاً مادياً، ثم إنه يعرف أن ماضيه في السجون الحربية يدعو للأسف والحسرة، لأن جاد الله نفسه كثيراً ما يتحدث مفتخراً عن ذلك، دون أن يبدو عليه ندم، وزملاؤه يستمعون إلى حكاياته الدامية تلك بين مصدق ومكذب، لكنهم لا يفتؤون ينادونه بالوحش، إشارة إلى ما يؤكده هو عن نفسه، وكثيراً ما لعب دور الدساس ومثير الفتن بين أقرانه، وهو أمر يثير الأشمئزاز حتى تجنبه غالبيتهم.

هذا كل ما يعرفه حسنين عنه، ومع ذلك فإن حسنين يـؤمن بأن الإنسان عرضه للخطأ والانحراف، وقد تتجلى رحمة الله على بعض عباده الآثمين، فيعودوا إلى الطاعة، وينيبـواويتوبوا، وشيخه يقول له دائمًا: « يا حسنين أنت تعيش وسط عتاة المجرمين . . فكن داعية خير وإصلاح بينهم، وحاول أن تزين لهم طريق التوبه . . يا حسنين لأن يهدى الله بك رجلًا واحداً خير من الدنيا وما فيها . . »

ظل حسنين صامتاً بضع دقائق وهو يفكر، وأخيراً أمسك بيد جاد الله في حرارة وقوة:

- « قم معي يا جاد الله . . »

- « إلى أين ؟؟»

- « قم . . ولا تسألني . . »

- « طريقي غير طريقك يا حسنين . . »

هتف حسنين كمنجذوب قائلًا :

- « قـم . . »

وجذبه في إصرار، سارا في الطريق العام، كان الليل بارداً، وعدد المارة قليل، غالبية سكان الحي هربوا من البرودة إلى دفء البيوت المزدحمة، وكثير من أعمدة النور لمباتها محترقة أو محطمة، لذا فالضوء

شحيح، السيارات تمر وتثير الغبار، جاد الله يتطوح إلى جواره دون إكتراث، فليذهب .. لا بأس ..، إنه يتعلم من كل شيء، ليس من السهل عليه أن يغير خططه وأفكاره، إن فلسفته خلاصة سنين القهر والضعة والهوان، ومبادؤه لم يتعلمها من الكتب، أو يتلقفها من أفواه الوُعاظ، هو الذي صنع تلك المبادىء وتشرّبها، ذات يوم أمسك بيد بنت الباشا وهي تترجل عن فرسها كي يحميها من السقوط، كانت يدها لدنه مثيرة، ونسى نفسه واستبقى يدها فترة أطول مما يجب، رمته بنظرة احتقار. ثم صفعته وهي تقول: « لو فعلتها ثانية أيها الحمار لرميت بك إلى الشارع » قالت له ( حمار )، ليتها قالت «حصان» لكان الأمر أخف على نفسه !! إنه يبتسم لهذه الذكرى وهو يسير إلى جوار حسنين .. حسنين الذي يكلمه في سذاجة عن الجنة ونعيمها وطيب ريحها، وعن جهنم وعذابها، وسوء مآلها، وطول عنائها .. وكانت كلمات حسنين لا تثير في جاد الله أدنى رغبة في السماع، ولا تحرك في نفسه أقل انفعال، وفي سخرية علق جاد الله قائلاً :

- « لا تحدثني عن النار والجنة، فأنا رأيتهما .. »

- « في المنام ؟؟

- « في الحقيقة يا حسنين ... »

- « هل جننت ؟؟ .. »

ـ « بل أنا في منتهى العقل والرزانة . . أنا عندي جحيم في بيتي جحيم خاص . . وجحيم في السجن . . حيث الذل والفقر يكـون الجحيم . . دعك من شيخك الجليل، وقل له: إن الجنة والنعيم هنا على أرض الله . . كثيرون ينعمون بالمال والجاه والحب . . تلك هي الجنة . . »

توقف حسنين عن المسير، واجه جاد الله، أمسك بكتفيه وهدر:

ـ « أيها الملعون . . لقد أفسد الشيوعيون تفكيرك . . »

قهقه كشيطان، وأنزل يدي حسنين، واستمر في سيره وهو يقول:

ـ « لم أتعلم من الشيوعيين . . كان كلامهم غير مفهـوم بالنسبـة لي، ولم أحصّل شيئا من الإخوان المسلمين لأنهم يريدون مجتمعاً من الصحابة . . وكرهت الباشاوات لأنهم استمتعوا بماضيهم أكثر من اللازم . . كرهت الجميع . . لكني كنت أستفيد منهم مادياً . . أخرج لهم الخطابات، وآتي بالردود، وانقل لهم الممنوعات مقابل أجر كبير . . وفي ساحة التعذيب أضربهم جميعاً . . أوامر يا حسنين . . وأنت تعرف الأوامر أنا لا أتعلم من أحد . . . أنا جامعة . . . »

دفعه حسنين بقبضتة القوية في صدره قائلاً:

ـ « جاتك خيبة ..»

قهقه جاد الله، وامتد الطريق، الضوء يخبو، والظلام يشتد طغيانه،

وأطراف المزارع تبدو قريبة، وأشباح الأشجار الضخمة تبدو كتلاً معتمة، والسماء ملبدة بغيوم مكظومة لا تبعث بقطرة ماء، وصوت «أم كلثوم» يتناهى إلى الأسماع واهناً، بآهاته الطويلة عن الهجران والحرمان والأحزان، وهدير المنتشين ينطلق عند نهاية كل مقطع، هتاف في صالات الغناء، وملاعب الكرة، والاجتماعات السياسيه، ومدارس الأولاد، ورأس جاد الله يدور .. الهتافات من كل نوع تتسابق إلى رأسه، ورأسه يكاد ينفجر .. هو يعرف نفسه، لا بد أن يدس في فمه قطعة من «الأفيون» ، إنه العلاج الساحر، تعلمه من المسجونين، إنه يشفي آلام الرأس، وأمغاص الكلى، ويخفف من القلق، تسللت يده إلى جيبه، أخرج ورقة « سَلفان » صغيرة في الظلام، ثم قربها من فمه بحرص، مخافة أن تسقط في العتمة فتضيع، أخذ يمتصها بلذة، دون أن يتنبه حسنين لما يجري، وبعد دقائق من السير صامتين، هتف جاد الله :

- « ليلتك أنس يا حسنين .. »

لم يرد عليه، كانت المسبحة في يمينه، وكان يردد بعض الأذكار التى وردت عن رسول الله، لكن جاد الله قال في إلحاح:

- « لماذا لا ترد ؟؟»

وجاءه صوت حسنين المستمر في سيره بجد وهو يردد:

- « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . .

- « وأفوض أمري الى الله إن الله بصير بالعباد

- «حسبنا الله ونعم الوكيل . .

- « يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف . . .»

أمسك به جاد الله وقال:

- « لقد تعبت . . وأريد أن أعود . .»

- « إمض وإلا . . . »

## (٥)

كان المكان يوحي بالسكينة والوقار، والجالسون يتحلقون في ثيابهم البيضاء النظيفه, ووجوهم تفيض بالإشراق والاطمئنان لم يستطع «جاد الله» أن يميز بينهم في البداية، بدوا وكأنهم نسخ مكررة من كتاب واحد، لكنه عندما أطال النظر، استطاع أن يدرك الفروق في السحنات والعمر ودرجة الإشراق.

همس وهو يخلع حذاءه:

- « من هؤلاء يا حسنين ؟؟»

لا تسألني عن شيء . . . »

وألقى السلام، وقصد لتوه إلى رجل يتوسط الجالسين، وحاول حسنين أن يقبل يده، فانتزعها الرجل برفق، وتبعه جاد الله كالمسحور، وفعل مثلما فعل، واتخذا مكانهما منتظمين في عقد الحلقة وهمس جاد الله :

- « ماذا سنفعل؟؟

- « مثلما يفعلون»

- « أريد أن أعرف . .

- « الصبر زينة الإيمان . . . »

- « لكني رجل ملوث .. أنت تعرف ... »

- « الله يحب التوابين الأوابين يا جاد الله .. »

شعر جاد الله كأنه يختنق، ما الذي أتى به إلى هنا، ليته رفض منذ البداية، ماله ولهذه الطقوس كلها، حسنين أيها الساذج هل تظن أن هذا الأسلوب ينفع معي ؟؟ إنك طيب القلب لدرجة السذاجة، إن حقدي يحرق مدينة بأسرها فكيف بهذا المجتمع الصغير ؟؟ ليكن كأنها مجرد تجربة .. مسرحية من مسرحيات الحياة ... ألم يقل يوسف وهبي « هيه .. الدنيا مسرح كبير» لقد أغلقت نوافذ قلبي منذ زمن بعيد، وفي داخلي ظلام دامس، ولن يبدده إلا العدل.. لكن أين العدل في هذه الدنيا؟؟ إنه خرافة ... أنا أعرف يا حسنين أن الانتصار لا تحققه إلا مخالب الوحوش .. نعم الانتصار .. إنني أتذكر الآن بالذات انتصار .. حتى اسمها يلهب كياني ... أعطتني متعة لم أشعر بها قط في حياتي الجرداء .. كانت مثلي تماماً لا تعبأ بشيء.. جسورة.. قوية، تفعل ما يحلو لها دون خوف، لم ألحظ بادرة من ندم أو تردد تخالجها لكأنها خلقت لي وخلقت لها، مسكين يا حسنين ما زلت تأمل في إصلاحي .. المحرك خرب .. فكيف تمشي العربة .. عش في جنتك الموعودة يا حسنين يا ملك الوهم، ودعني في شأني .. ليس هذا مكاني اتركني أذهب إلى انتصار ... كيف يتواءم الوحش مع هذه الحملان الوديعة ...

أيها المخدوع إن دموع الإظهار كلها في هذه الدنيا لن تمسح خطاياي

.. وتوقف جاد الله عند هذا الحد من الأفكار، ثم أخذ يزحف إلى الخلف في بطء شديد، حتى خرج عن الحلقة، معتزماً الخروج .. وتلبسه الخوف حينما سمع صوتا يناديه باسمه فجأة:

- « مكانك يا جاد الله .. »

ونظر، وكان المتحدث شيخهم الكبير ( البحيري ) فعل ذلك دون أن يرفع رأسه، تُرى كيف عرف اسمه ؟؟ وكيف رآه وهو يحاول الإفلات ؟ أيكون حسنين قد أخبر شيخه بذلك من قبل ؟؟ ربما ..

وأشار الشيخ بحيري بيده ناحية اليمين، فانبعث صوت المنشد ندياً، رقراقاً:

يا راحلين إلى «منى» بقيادي ..
شوقتموا يوم الرحيل فؤادي ..
سرتم، وسار دليلكم يا وحشتي ..
أرّقني وصوت الحادي ..
فإذا وصلتم سالمين فبلّغوا ..
مني السلام إلى النبي الهادي ..

رفت نسمة رخية، وتهامس الجو بأنغام شجية، ونسي جاد الله من يكون، وذاب في اللحن الساجي المؤثر، وكادت تسقط من عينيه دمعة، لكنه هز رأسه كمن يفيق من حلم ليته لا يفيق، وهو يقاوم

الذويان الطاغي كمن يصر على الغرق فيرفض الأيدي التي تمتد إليه لنجدته .. لكنه سمع صوت حسنين :

- « شيخنا سيؤدي فريضة الحج هذا العام..وبعضنا معه..

رد جاد الله هامساً:

- « ليتهم ألغوا لقب « الحاج »مع إلغاء باقي الألقاب..

- « ليس الأمر لقبا يا مجنون .. »

- « ماذا إذن »

- « إنها رحلة عشق للذات العلية .. هكذا يقول شيخنا .. تذهب بخطاياك، وتعود كما ولدتك أمك ..»

ترنح جاد الله وقال:

- « هل يصح أن أحج من مالي الذي تعرفه ...

- « إن الله طيب، لا يحب إلا طيبا .. هكذا يحدثني شيخي ..»

- « وأين لي من مال الحلال؟؟ إذن فلن أحج أبداً..»

تنحنح الشيخ وبسمل وحمد الله، ثم أخذ يحدثهم عن الدنيا ومفاتنها ومغرياتها، وعن التقوى وأثرها وعن صدق النية، وسلامة القصد وإتقان العمل والاجتهاد في العبادة، والسعي للرزق، وأشياء كثيرة

أخرى، وفي نهاية حديثه قال إن الدنيا سجن المؤمن، وكم كانت دهشة الحاضرين حينما سمعوا ذلك الوافد الجديد، جاد الله يقول:

- « نحن في سجن دائم أيها الشيخ .. ولا نخرج منه آخر النهار إلا لننام، كي نعود في اليوم التالي .. »

وساد الصمت، كان الشيخ يرمقه من بعيد بنظرات ثاقبة، وقال الشيخ بنبرات واضحة:

- « فرق كبير بين أن تعيش في السجن وبين أن يعيش السجن فيك .. »

صاح الجالسون بصوت منفعل:

- « الله أكبر .. »

قال جاد الله:

- « لم أفهم .. »

- « إن فوق قلبك تِلالا من الخوف ... »

- « لم يقل أحد قط إني جبان .. »

- « ولم يقل أحد أنك شجاع .. »

تفكر جاد الله، فعلاً إنهم يرمونه بالقسوة والاستهتار وعدم اللامبالاة، ويقولون أنه مغامر، لا يحجم عند ارتكاب الحماقات،

لديه جراة عجيبة في اقتحام المخاطر، وكسر القوانين، أليست هذه هي الشجاعه ؟؟ وهنا تدخل حسنين قائلا :

ـ « سيدي وشيخي ... اعذره .. إنه لا يعرف الحقيقة .. »

وقال الشيخ موجها كلامه لجاد الله :

ـ « أي بني .. قد يأتي أحدنا فعلاً طائشاً، ويسمية شجاعة، وقد يرمي بنفسه في المهالك، ويعتبر ذلك بطولة، فلماذا لا تكون تلك الأعمال التي تتسم في ظاهرها بالشجاعه، منبعثة من خوف أكبر، أو تحركت بدافع الأنانية والطمع ؟

ارتجف جسده، لم يدر جاد الله بماذا يعلق، حاول أن ينطق فخانه لسانه، أخذ يرمش بانفعال، ويعبث بأصابعه دون هدف، فعاجله الشيخ قائلاً :

ـ « الدنيا هروب كبير .. »

قال جاد الله :

ـ « لا أفهم

ـ « هذا يهرب من المسؤولية ، وذاك يهرب من الحقيقة، وآخر يهرب من مواجهة نفسه .. ورابع يهرب من الخطر، ألا وإن أبشع هروب هو الهروب من الصدق .... »

قال جاد الله كمن يتعلق بقشة:

- « أنا أواجه الخطر . . »

- « من منطلق الخوف على الذات . . »

ثم ابتسم الشيخ في براءة وعطف واستطرد:

- « تلقي بنفسك في جحيم الموت . . . لتحيا . . »

- « أموت لأحيا ؟؟ كيف ؟؟

- « أنت تعرف . . . »

همس حسنين في أذنه قائلاً:

- « اصمت يا جاد الله . . . إن شيخنا مكشوف عنه الحجاب . . »

هتف الشيخ في امتعاض:

- « لا يا حسنين . . استغفر ربك . . أنا رجل مثلكم لا أعرف شيئاً عن غيب الله . . لكني مسافر يبحث عن الحقيقة وفق نواميس الله، وسنن الحياة التي وضعها. أنا أحمل شمعة صغيرة، وأتجول بها في خفايا النفس، لعلي أعرف أمراً يساعدني في الفهم . . مات ابني فجأة ولم أكن أعرف أنه سيموت . . وشرد ولدي عني منحرفاً، فبكيت كما تبكون . . لم أبكِ لخيبة أملي فيه . . ولكن

إشفاقاً على إنسان ضلَّ . . كنت أشعر بما شعر به نوح عليه السلام نحو ولده . . .

فرح جاد الله لهذه الكلمات، وعلق قائلاً:

ـ « أنا أقول ذلك . . نحن نفعل ما نفعل بأمر الله . . ولا يمكن أن نهرب من قدر الله . . »

مسح الشيخ دمعة انحدرت على خده وقال:

ـ « بل نفر من قدر الله .. إلى قدر الله.. كما قال عمر.. »

قال جاد الله وقد حاصرته الأفكار :

ـ « ماذا نفعل ؟؟ العالم كله فساد في فساد . . »

قال الشيخ باطمئنان كبير:

ـ « عُد إلى نفسك . . وافتح كتاب الله . . وأغرق همومك في عمل مفيد . . »

ودق الشيخ بيديه ونادى « الله . . الله . . الله » وكان ترديد لفظ الجلالة متوافقا مع ضربات كفيه، وشاركه الجميع في الذكر، كان رأسه يهتز مع النغمات يمنة ويسرة، وعيناه مغمضتان، ونظر جاد الله حواليه، فرآهم يهتزون وينصتون بايقاع موحد، و وجد نفسه يغمض عينيه ويفعل مثلما يفعلون . .

في طريق العودة، شعر جاد الله بسخونه في رأسه برغم برودة الجو، كان طوفان الأفكار يهدر في داخله، اختلطت الحدود في رأسه بين كل المتناقضات، لم تزده الزيارة الأخيرة على جيرته، ما هذا العالم الغريب الذي من حوله ؟ قوم يعبدون الله في إيمان ويقين، وقوم يسرقون وينهبون ويقتلون دون أن تهتز فيهم شعرة من خوف الله. ومسجونون يغوصون في الإثم دون مبالاة، وضباط يشمخون بأنوفهم وكأنهم آلهة يأمرون فيطاعون، وحكام لا شريك لهم في حكمهم لا يسألهم أحد عما يفعلون، ويتحدثون عن الحرية والحب والإخاء والمساواة، وشباب يموتون غيلة، من أجل موقف أو رأي، لو كنت في موقفهم لضحيت بكل شيء حتى أعيش . . أن تعيش هذا هو المهم، وبعدها تستطيع أن تتصرف كما يحلو لك، وتحاول أن تتغلب على كل الصعاب، وأن تغير من مبادئك وخطتك مثلما تهوى، المهم ألا تموت، وأن تنعم بحياتك، لا تستطيع قوة في الأرض أن تقنعني بأنني جئت إلى هذه الدنيا لكي أضحي أو أتعذب أو أعاني، من العدل أن أحقق ما أريد أو قدراً لا بأس به بما أريد، أو على الأقل أعيش حياة مقبولة . . ليقل الشيخ بحيري ما يشاء فلو عضه الجوع، وأرقه الذل مثلي لكان له موقف آخر غير موقفه الحالي . . لقد سرت في طريقي الخاص منذ زمن بعيد . قتلت . . وفسقت . . وسرقت فماذا يعني ؟؟ لم يبق إلا خطوة واحدة حتى أحقق آمالي ومن يدري بعدها ماذا يحدث، قد ألبس عمامة،

وأطلق لحيتي، وأنخرط في سلك العابدين الزاهدين، الزهد له مذاق خاص عنـدما يملك الإنسان كل شيء، لكن الزهد مهزلة كبرى حينما يكون الزاهد فقيراً عاريا جائعاً، لا يملك من حطام الدنيا شيئا.

ـ « قل لي يا حسنين، هل الشيخ بحيري متفرغ للعبادة تماماً؟»

ـ « من قال ذلك ؟؟ ألا تعلم يا جاد الله أنه مدير منطقة «حلوان» التعليمية؟؟ ثم إن هؤلاء الإخوان منهم المهندس .. والمدرس .. والطبيب .. والفراش .. والتاجر .. »

قاطعه جاد الله قائلاً:

ـ « والسجان .. »

ـ « نعم .. كلنا إخوة .. »

ـ « إذن فهو غني .. »

ـ « الغنى غنى النفس يا جاد الله .... إنه يغدق بلا حساب، يساعد الفقراء، وقد أنشـأ مكتبا لتحفيظ القرآن، وبنى داراً صغيرة في «المعادي» لتعليم اليتامى بعض الحرف .. ينفق على بعض طلبة الجامعة والأزهر .. »

قال جاد الله في خبث :

- « هل تدفعون بعض الاشتراكات الشهريه أو الهبات . . »

- « تأدب يا جاد الله . . إنـه يعطي ولا يأخذ . . وإذا أعطى يقول إنه من مال الله . . »

قال جاد الله مازحاً :

- « لماذ لا يقرضني ألف جنيه ؟؟ »

- « إنه يعطي المستحقين يا جاد الله . . »

- « سؤال يا حسنين . . »

- « قــل . . »

- « أليس له نشاط سياسي . . »

- « إنه معلم . . قدوة للخير . . أتفهم ؟؟»

صمت جاد الله برهة ثم قال في برود عجيب :

- « سأبلغ عنه «المباحث العامة» . . إنه خطر على أمن الدولة . . »

- « هل جننت يا جاد الله . . »

- « شيخكم يتحــدث كثـيراً عن الله والقـرآن . . وهي شعارات تختلف عن شعارات الحكومة . . حرية وحدة إشتراكية . . »

دفعه حسنين في ظهرة بغلظة وهو يقول:

- « أيها العابث الملعون .. كيف تجرؤ ؟؟»

- « الواجب الوطني لا يعرف العواطف .. »

- « اصمت وإلا إحترقت .. »

- « ساصمت بشرط .. »

- « ما هـو ؟؟ »

- « ألا تأخـذني إليه مرة أخرى .. هذه واحدة .. وأن تتركني وشأني في السجن .. هذه هي الثانية .. »

وألا تتعرض لمحفوظ بأي أذى أو تهديد .. تلك شروطي الثلاثة وإلا أثرت عليكم الدنيا ورميتكم بكل شبهة ممكنة .. أنت تعلم أني بلا ضمير .. وأستطيع أن أفعلها .. جاد الله ليس في قلبه ذرة من رحمة .. »

نظر إليه حسنـين في أسى، تمنى في تلك اللحظة أن ينشب أظافره في عنقه، ويظل يضغط حتى يزهق أنفاسه، تمنى أن ينهشه بأسنانه، أيمكن أن يكون ( جاد الله ) إنسانا ؟؟ مستحيل إنه لم ير في حياتـه شبيهـا له، فليستغفـر حسنـين ربه، وليتمالك أعصابه، وينسى كل ما سمعه، ويدعو له بالهداية .. من يدري؟ سبحان مغيِّر الأحوال . . .

وحث حسنين خطاه مسرعا صوب بيته، تاركا جاد الله يتطوح

في بطء، ويسير على غير هدى، وهو يردد في سخرية ( الله يا بلادنا الله . . . ) ولم يستطع الاغنية التي يرددهـا أن تذهب عنـه قلقة وأحزانه . . كان يطلقها من اللسان، وقلبه ينبض بقوة من جراء ما يفكر فيه، لقد رأى الكثيرين من نزلاء السجون يعضون بنان الندم بعد فوات الأوان ، وصدور الاحكام، ويتمنون أن يرجع الزمان، فلا يقعوا فيما وقعوا فيه من أخطاء، هو يعرف ذلك عن تجربة . . الـذي مضى لن يعـود . . لكنـه غير هؤلاء جميعـا . . انه يمشى بخطوات محسوبة، ويتخذ لكل أمر أهبته، ولن يخلف وراءه أثرا أو خيطا رفيعا يوصل الباحثين إليه، انه ليس غبيا، لقد تعلم الكثير من حماقات الآخرين وأخطائهم، فلا خوف إذن . . الخوف من شيمة الضعفـاء والمترددين والخانعين . . فليسقط الشيخ بحيري . . وليسقط حسنين، وليسقط المدير الكبير . . وأخذ جاد الله يقهقه فيما يشبه الجنون . . .

ذهبت « انتصار » إلى الليمان في زيارة خاصة لمحفوظ، مشت تتبختر في ثقه لا حد لها، جمالها الوحشي يلفت الأنظار، جلست تنتظر وسط جمع من النسوة والأطفال والرجال، قدموا من شتى الأنحاء لزيارة المسجـونـين، إنهم خليط عجيب من الـزائـرين فيهم الصعيدي والبحراوي، وفيهم المتعلم الذي يلبس بدلة أنيقة، والأمي الذي يرتـدي جلبابا فضفاضا، والنسوة في غالبيتهن غارقات في الملابس السوداء، والدموع تتساقط من عيون بعضهن، وأصوات الزائرين يعلو وينخفض كل يتحدث عن سجينه، فهذا قد أخذ بثأره، وثان قد أدين غدراً بالاتجار في المخدرات، وثالث من السياسيين ، ورابع حكم عليه في قضية اختلاس، والتعليقات التي تنتشرهنا وهناك تخرج منها بمعنى غريب فالجميع يتحدثون عن الظلم والمكائد والإيقاع بالأبـرياء، الجميع في نظر أقربائهم الزائرين مظلومون، وهناك ما يشبه الإجماع بأن أخطر هذه القضايا كلها هي القضايا السياسيه، امرأة تقول :

- « ما لنا وللسياسة!! مخطىء من يتصدى للحكومة»

وتضيف أخرى :

- « من ينظر فوق يتعب، فلنرض بما نحن فيه»

وتثور ثالثة قائلة :

- « حكومة فاجرة لا تستحي .. »

ويرد شاب متين البنيان ، كث الشارب قائلاً :

- « طائفتان مظلومتان في هذه البلد .. طائفة المخدرات .. والإخوان .. »

يظل الحوار بين الزائرين يدور بلا نهاية، تقطعة شهقات البكاء، واللعنات الساخطة، ودموع تتساقط في صمت، أما انتصار فهي تتسلى بما يجري دون انفعال، إنها تبتسم وتُدندن بأغنية شعبية « عيني بترف يا حبة عيني .. » ويأتي جاويش الزيارة ويقرأ من ورقة في يده بعض الأسماء، ثم يأخذهم في طابور إلى الداخل .. ليزوروا ذويهم

جلست « انتصار » إلى جوار « محفوظ » في غرفة الضابط، أخرجت له دجاجة مشوية وكمية من « الأرز المحّمر » وقطعة لحم كبيرة، أخذ يأكل في شهية ملفتة للنظر ويتكلم أثناء الأكل « لك وحشة يا انتصار .. متى تعود أيامنا الحلوة .. لعنة الله على السجن .. أحياناً أفكر في الانتحار كحل نهائي لعذابي .. لكني اتماسك وأقول الصبر يا محفوظ .. كله يهون .. يهون من أجل عينيك يا « انتصار ويضمها إليه في عنف، فتبتسم في خجل مصطنع وهي تنظر الى الضابط الجالس خلف مكتبه، ويخرج الضابط لقضاء شأن من

شؤونه، وهو يقول محذراً:

ـ « إحذرا الممنوعات .. سوفَ أقوم بتفتيشك بدقة بعد الزيارة يا محفوظ .. أنا أعرفك .. شيطان .. »

وتقول انتصار في دلال وهي تبتسم :

ـ « محفوظ ؟؟ إنه طيب القلب يا بك . مسكين ولا يخون أبداً .. »

ويلتفت إليها الضابط قائلاً وهو يندفع إلى الخارج :ـ

ـ « إنه ملعون .. الطيبة أنت .. والمسكينة أنت .. »

وما أن يخرج الضابط حتى يقول محفوظ هامساً

ـ « أريد أن أطمئن على الموضوع .. »

ـ « الأمور تمشي في طريقها المرسوم .. لا تخف .. لقد كانت ضربة معلم .. الأمباشي « جاد الله » مناسب تماماً .. يا لأفكارك الجهنمية .. كيف أوقعت به ؟؟ فكـرة ممتازة ... إن بدلـته الصفـراء تبعد عنه أية شبهة ... لا يتصور أحد أن يقوم رجل حكومة .. رجل نظام بالتزييف .. ثم إنه كالغول .. طمّاع لأقصى حدود الطمع .. يريد المال بأي شكل .. بأقصى سرعة

ـ « وهل تسلم ماكينة تزييف النقود ؟؟»

- « ليس بعد .. لم تزل في مخبئها الأمين منذ فترة، كان لا بد أن نتوقف لبضعة شهور، حتى تيأس المراقبة وتختفي .. لقد غيرت مسكني، وقطعت علاقتي بمعظم الأصحاب القدامى .. كما أمرت .. لا بد أن نبدأ من جديد .. وبأسلوب جديد .. »

كان محفوظ قلقا، إنه يخاف أن يستولى « جاد الله » على ماكينة الطباعة نهائيا، ويحتفظ بها لنفسه، ويخاف أيضا من جشع « جاد الله» فقد يندفع في إغراق السوق بالأوراق المالية الزائفة، فيلفت الأنظار ويحدث ما لا تحمد عقباه، وفي هذه الحالة،ستستولي الحكومة على الماكينة، وينقطع المال إلى أن يخرج محفوظ، لكن انتصار طمأنته وأكدت له أنها ستوثق علاقتها بجاد الله، وستتردد على بيته كثيراً، وتراقب حركاته وسكناته، وستحدد كل أسبوع الكمية المطلوب طبعها، وطريقة ترويجها، في طول القاهرة وعرضها، بل وخارج القاهرة أيضاً،وسيكون لها شبكة توزيع ماهرة، وأسلوب خاص بها، بل ولن تنزل الأوراق المالية إلا في أوقات معينة، وقالت انتصار وهي تقرصه في خدة مداعبة :

- « أنا خبيرة .. فكن واثقاً .. »

- « لكني أخاف عليك .. تعرفين كم أحبك .. »

- « تأكد أن الرقابة لن تمسك بي أبداً .. ليس كل الطير يؤكل لحمه .. »

- « أعرف لحمك مر يا انتصار . . »

- « لا . . حراق كالشطة. . »

- « أيتها الملعونة . . »

دخل الضابط فجأة وقال :

- « انتهت الزيارة . . »

قال محفوظ لانتصار :

- « ليتنا نبقى هكذا طول العمر . . »

- « وما الفائدة ؟؟ العيون حولنا من كل جانب . . »

- « أنا لا أرى إلا أنت . . العالم كله ليس فيه سوى وجهك الجميل . . ألا تصدقين ؟؟»

- « لو كنت صادقا لتزوجتني . . »

- « اخفضي صوتك . . الجميع يعتقدون أنك زوجتي . . »

- « يا حسرة . . أنا زوجة لكل من هب ودب . . أنا اشتراكية . . »

وقهقه محفوظ، وضحكت انتصار . . ودق الضابط بقدمه الثقيل على أرض الغرفة، فجمعت أشياءها، وبقايا الطعام، واستأذنت الضابط في أن تعطي محفوظ علبة سجائر، فقال الضابط :

- « فلأفحصها أولاً . . »

وفتحها الضابط ، وأخذ يُمعن النظر فيها سيجارة سيجارة، ويتشممها ثم قذف بها إلى محفوظ قائلاً :

- « انتظر . . واذهبي أنت . . »

مضت عبر ممر السجن المؤدي إلى الباب كأميرة، كانت تتدفق نشاطا وحيوية، وعيون المسجونين الذين ينظفون الفناء، ويخدمون في المكاتب ترمقها في اشتهاء وحرمان صامت، وتشجع احدهم قائلاً في صوت كالفحيح :

- « يا خسارة يا أولاد . . لقد ضاع العمر هباءً . . »

وأخذ يدندن بصوت أجش :

- دوبني دوب يا هـــوا دوبـــني دوب

- يا ما نفسي اتوب يا هوا يا ما نفسي اتوب

علق زميل له وهو يكتم ضحكاته :

- « لا فرق بين صوتك ونباح كلب المأمور . . »

ولم يكد ينتهي من تعليقه، حتى فوجىء بصفعة قوية ترن على قفاه فالتفت فإذا بالأمباشي جاد الله يرمقه بنظرات نارية ويقول:

- « اشتغل يا بهيم . . »

ـ « أمرك يا حضرة الصول . . »

ـ « لا أعرف لماذا خلق الله أمثالكم . . »

ـ « كي تجد من تضربه على قفاه . . »

بعـد أن خرجت انتصار من السجن، جلست قرب مقهى صغير تشرب الشاي وتقضم شطيرة صغيرة من الخبز المحشو بالبيض، وما أن خف الزحام حتى رأت « جاد الله » قادماً يتلفت، أشار إليها من بعيد، ثم مشى في طريقه مبتعداً عن السجن، ومشت خلفه، يفصلها عنه بضعة أمتار، والتقيا وجهاً لوجه في أحد أسواق الخضار والفاكهة، وسط الضجيج والغبار،قالت وهي ترمقه بعينين ماكرتين :

ـ « طال غيابك يا قاسي . . »

نظر إلى وجهها فشعر بدوار، قال :

ـ « كان لا بد أن أفكر . . »

أمسكت بذراعـه ونـظرت إليه نظرات ذات معنى، يعرفها جيداً، وقالت :

ـ« سأنتظرك الليلة . . »

عاد ينظر إليها، شعر أنه لا يستطيع المقاومة، تذكر البحر العميق حيث لا قرار وطافت برأسه الأحلام الوردية ، ألوان راقصة، أنغام يطرب لها قلبه، بساتين يفوح منها المسك والعبير، وهو يجلس على

كرسي موشى بالذهب والقطيفة الحمراء، وهي جالسة تحت قدميه تنعم بالجواهر واللآلىء، وجيوبه منتفخة بأوراق « البنك نوت » .. أموال لا حصر لها، تكفيه كي ينفق ببذخ لألف عام .. هذا هو النعيم بعينه، ولا شيء غيره ..

- « سأحضر .. بالتأكيد .. لا أستطيع أن أتخلف .. »

- « إذن فأنت تحبني .. »

- « أنت كل شيء في حياتي ، لكن .. »

- « لكن ماذا ؟؟ »

- « زوجك .. محفوظ .. »

- « لا تفكر فيه الآن .. »

- « لكنه زوجك .. وسوف يخرج من سجنه يوماً .. أو على وجه التحديد بعد ثلاث سنوات .. »

قالت في خبث يفهمه :

- « العصمة في يدي .. »

- « غير معقول .. »

- « اسأله .. لست جارية .. أنا ملكة نفسي .. وما أريده يحدث .. »

- « جبارة . . . »

- « أنت الأقوى يا وحش السجون . . »

دق قلبه دقات منتشية، قال :

- « سمعت ضابطاً صغيرا، حديث التخرج، يقول لصديقه في التليفون البقاء للأصلاح . . قاطعته والسماعة في يده : لا . . للأقوى . . صرخ في وجهي اخرج يا حيوان . . ابتسمت . . قلت له . . هكذا تأكدت وجهة نظري . . سوف أخرج لأثبت لك أنك الأقوى . . »

همست :

- « على الرغم من أنني لا أفهم تماماً ما تقول إلا أنني أقدس القوة . . »

- « يبدوا أننا متفقان . . »

- « بالتأكيد يا جاد الله . . »

- « فلماذا لا نتزوج ؟؟ »

- « كيف ؟؟ »

- « تطلبين الطلاق من محفوظ، ذلك الحق . . لأنه مسجون لمدة طويلة ولأن العصمة في يدك . . »

قالت في امتعاض :

- « ليس هذا تصرف الأقوياء، ثم إنه بيني وبينه عهد .. قد يظن البعض أننا حثالة البشر .. لكننا نعرف الوفاء .. وكلمة الشرف على نحو ما»

هز جاد الله رأسه في استغراب وتمتم :

- « الشرف ؟؟ ماذا تقولين ؟؟ »

- « نعم .. أنا أفهم الشرف بطريقتي .. أعني بطريقتنا مستحيل أن أخذله وهو سجين .. إذا فعلت فسيركبني العار طول حياتي ..»

قال غاضبا :

- « تطعنين بشرفه كل يوم، ثم تتحدثين عن الشرف ؟ »

- « يوماً ما ستفهمني .. »

- « إذن لا مناص من التخلص منه .. »

- « ممـــن ؟؟ »

- « محفوظ .. أستطيع أن أقتله في السجن دون شبهة، وبطريقتي الخاصه .. أنا أكره من يعترضني ..»

توقفت عن المسير، وقالت بجدية :

ـ « لو فعلتها فلن أكون لك . . وستدمر مستقبلنا . . إنك تحكم على خطتنا بالإعدام يا جاد الله . . وأنا لن أعجز عن الحصول على رجل آخر . . »

ـ « أهو تهديد ؟؟ »

ـ « بل نصيحة أخوية . . »

ـ « لكني أحبك . . أحبك بجنون . . »

ـ « وأنا لك . . »

أمسك بذراعها في عنف وقال :

ـ «أتحبينني ؟؟»

ـ « أتشك في ذلك ؟؟ »

ـ « قوليها بصراحة . . »

ـ « أيها الغبي . . أمامك ألف دليل ودليل . . »

وسادت فترة صمت قالت بعدها :

ـ « هه . . سأنتظرك الليلة . . »

وظل شارداً برهة، ثم عاد ينظر إليها فلم يجدها، كانت قد ذابت في خضم الزحام . . فعاد أدراجه صوب الليمان . . .

- ٧ -

بدت الـدهشـة على وجـه جاد الله، حينـما رأى « حسنين » قادماً، وعلى الرغم من أنه رحب به في فرح ظاهري، إلا أنه تساءل بينه وبين نفسه: ما الذي أتى بحسنين هذه الساعة؟ وإلى متى يظل .. يلح في مطاردتي والاتصال بي سواء في البيت أو داخل السجن، لقد مللت أسلوبه وطريقته في الكلام . وجهه السمح يغيظني، تقاه واطمئنانه ورضاه بنصيبه كلها تثير اشمئزازي .. إصراره على أن يؤدي الصلوات في وقتها وبسننها وأورادها، يذكرني بتطبيق اللوائح والقوانين الصارمة، ونظر جاد الله إلى وجه حسنين المضيء، وإلى الشعرات البيض التي تخالط شاربه وفوديه، وإلى عينيه الصـافيتين الباسمتين اللتين تفرضان الاحترام والتقدير، ثم تمتم:

- « الشاي يا ميمونة .. »

واتجه بحديثه إلى حسنين قائلاً :

- « أراك سعيداً الليلة .. »

- « إنني سعيد دائماً، وكيف لا أسعد وقد حباني الله بالخير كله ؟؟ »

قهقه جاد الله في سخرية وقال :

- « الخير كله يا حسنين ؟؟ »

رد في تأكيد وثقة، وهو يدق الأرض بعصا معوجة في يده :

- « نعم .. أخبرني شيخي أن رسولنا يقول: من عاش آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها .. وهكذا ترى يا جاد الله أن السعادة في كلمات ثلاث الأمن ... الصحة ... أكل يوم ... أو تستطيع يا جاد الله أن تعترض على كلام رسول الله ؟؟؟ »

هز جاد الله رأسه في استنكار قائلاً:

- « استغفر الله ... شيخك بحر علم .. »

- « أجل هو كالبحر الطامي .. »

وكعادته في الهروب دائماً تفلسف جاد الله قائلاً:

- « خلق الله الطاعة والمعصية، والغنى والفقر، والجهل والعلم، والصحة والمرض .. ثم قسم الأرزاق .. »

- « صدقت ... »

- « وأنا أعرف نصيبي يا حسنين .. المعصية والجهل والفقر .. ترى ما ذنبي أنا في ذلك .. »

واشتعل الحوار بينهما، جاد الله يؤكد أن الخطيئة من إرادة الله، وأن العبد لا حيلة له، وحسنين يتحدث عن إرادة الإنسان الحرة في أن

يفعـل أو لا يفعـل، وأن عدالته قد اقتضت أن تكون العقوبة أو الثـواب للإنسـان بنـاء على تلك الحرية، كانا يتحدثان بعبارات بسيطة، في قضية من أخـطر القضـايا القـديمة، وأشدها صعوبة ووعورة، وهي قضية « الجبر والاختيار » وإن لم يعلما ما هو الجبر وما هو الاختيار، ولا المصطلحات العويصة، والتحليلات الشاقة التي تناولها العلماء والفقهاء والفلاسفة جيلا بعد جيل . . . وكان حسنين مؤمنا بأن إرادة الله فوق كل إرادة ، لكنه عادل « ولا يظلم ربك أحدا »، وكان جاد الله يحاول أن ينفي عن نفسه المسؤولية، بحجة أنـه لا يفعل فعلاً، ولا ينطق قولاً إلا بأمر الله، ويبين كيف أن الظروف القاهرة أحيانا قد تدفع الإنسان إلى السرقة فيصبح لِصّاً، أو تجرُّه إلى الفحشاء فيصير زانياً، أو تغريه بالمتعة والفضول فيسكر أو يتعاطى المكيفات، وطال صبر حسنين، وظل يناقش جاد الله في أفكـاره الشـاذّة، التي تتـلاعب بالألفـاظ، والتي تبـدو في ظاهرها معقـولـة، ولكنها في حقيقتها الافتراء والزيف والوهم، وأخيراً قال حسنين :

- « ما الذي يفعلونه بالسارق إذا أمسكوا به متلبساً ؟؟»

- « يساق إلى السجن يا حسنين . . »

- « وعلى أي أساس يفعلون ذلك . . »

- « القانون يا حسنين . . »

- « وإذا لم يفعلوا ذلك . . . »

- « تصبح الدنيا فوضى يا حسنين . . »

وقف حسنين في غضب وصرخ مهتاجاً :

- « يا حسنـين . . يا حسنـين . . ما هذا، أتقبل عدالة الأرض، وتشك في عدالة الله ؟؟»

قال جاد الله ببرود :

- « ومين قال إن في الأرض عدالة ؟؟ لو كان بيدي الأمر لما سجنت السارق، ولا قبضت عليه أصلاً . . إنه لا يسرق إلا لأنه محتاج . . لكن الله لا يحتاج إلى شيء منا . . عدالة الله فوق الشك لكنكم تفسرونها تفسيراً يتفق وهواكم . . »

سدد إليه حسنين نظرات يمتزج فيها الإشفاق بالضيق، وفكر في أن يتركـه ويرحل، لكنه سمع صوت ميمونة الخجول الضعيف وهي تقول :

- « الشاي يا جاويش حسنين . . »

جلس وهو يلهث ، وأمسك بكوب الشاي في عصبية، ثم ارتشف منه رشفة طويلة برغم شدة سخونته، وعادت ميمونة تقول :

- « لا تتضايق من جاد الله . . إنه كثير الكلام . . رأسه

مصفحة . . لا يكل ولا يمل . . لو تركته يتكلم يومين كاملين لما توقف عن الكلام . . إنه يمزح يا سي حسنين . . دائماً يقول لي كلاماً كثيراً ولا أفهم منه إلا القليل . . ولهذا لا استطيع أن أنصت له طويلاً . . ماذا أفعل ؟؟ الأولاد يشغلون كل وقتي . . أما هو فبضاعته الكلام . . »

صاح فيها جاد الله معنفاً :

- « أخرجي يا جاموسة . . »

- « جاموسة . . بقرة . . الله يسامحك . . قل ما تشاء يا جاد الله . . كله مقبول منك . . إن لم أتحملك أنا فمن يتحملك

ولم تعطه فرصة كي يستطرد في سبها وشتمها، وبعد أن خرجت بقيا صامتين بضع دقائق، وما أن انتهيا من شرب الشاي، حتى قال حسنين :

- « جئت أدعوك لعقد قران ابنتي . . »

رفع جاد الله حاجبيه في دهشة ، وقال :

- « ابنتك ؟؟ »

- « نعم . . الزواج ستر وغطاء . . »

- « لكنها لم تكمل تعليمها بعد . . »

- « لا يهم . . لقد اكتملت أنوثتها . . »

ـ « هذا أمر ثقيل عليك . . »

وعلى الرغم من أن جاد الله قد هنأه بهذه الخطوة إلا أنه أبان عن العقبات التي لا شك ستعترضه، فجهاز العروس اليوم يتكلف مبلغا باهظا لا يقدر عليه حسنين، أضف إلى ذلك أعباء تكملة التعليم، ومسئولية الأطفال إذ ولدت مبكراً، وغير ذلك من الأمور التي لا تخفى على أحد، وخاصة إيجار شقة لسكنى العروسين، وعلى الرغم من موافقة حسنين على ما أبداه جاد الله من وجهة نظر إلا أنه قال :

ـ « خطيبها يعمل مهندساً في شركة « عثمان »، ويتقاضى مرتبا لا بأس به، وكثيراً ما يسافر للخارج لإنجاز بعض الأعمال للشركة في السعودية وليبيا والكويت . . المهم أنه مستور، ولديه المسكن . . وأثاث المنزل . . سوف يأخذها من يدها ويرحل . . ولن يكلفني إلا ملابسها والكعك و . . . »

قاطعة « جاد الله » قائلاً:

ـ « وأين ستقيم الحفل ؟؟ »

ابتسم حسنين، وعادت إلى وجهه إشراقة النور، وقال:

ـ « في المسجد . . . »

ـ « يا ربي . . المسجد ؟؟ أهي جوازة أم جنازة ؟؟»

ـ استح يا رجل . . ولا تفضح نفسك . . »

احتقن وجه حسنين، لكنه تماسك وقال :

- « وسيكـون شيخنـا على رأس المدعوين . . وهو الذي سيشرفنا بعقد القران . . وأحيطك علماً يا جاد الله أن العريس هو صاحب اقتراح المسجد . . »

لم يرق هذا التصرف لجاد الله، ورأى فيه حطّاً من أقدار السجانة كطائفـة لها احـترامهـا ووزنها، كما رأى فيه حيلة خبيثـة لتقليل النفقـات، .وضغط المصروفـات، فلا زينات ولا أضواء ولا موائد حافلة بأطايب الطعام، ولن تدور « الجوزة » أو تتقارع الكؤوس، ولن تهز الـراقصـة أردافهـا، أو تردد أغـانيها المكشوفة، ولن تدق الطبول، أو تعزف الموسيقى أو تطلق الرصاصات والزغاريد . .

هتف جاد الله في ضيق :

- « لن أسمـح لنفسي أن أحضر عرساً كهذا . . أتدري لماذا؟ لأني أغار على سمعتك وشرفك . . »

- « أعرف أنك تجادل في كل شيء . . »

- « ألن تدعو المدير أو المأمور مثلاً . . ؟؟»

- «سأدعوهم . . ولن يحضروا . . »

- « وإذا حضروا يا حسنين، فماذا يكون موقفكْ ؟ . .»

بَسطَ حسنين راحتيه في هدوء وقال :

ـ « لا شيء . . سيشربون الشربات . . ويصلّون العشاء في المسجد . . ويستمعون لدرس قصير من شيخنا الجليل . . »

كز جاد الله على أسنانه في غيظ :

ـ « اعذرني . . لن أحضر . . »

ـ « لكني أعددت مائدة خاصة للزملاء وأسرهم في بيتي بعد العودة من المسجد . . »

صاح جاد الله ثانية :

ـ « لن أحضر . . »

هز حسنين كتفيه مستغربا وقال :

ـ « أنت حـــر . . »

واستأذن في الانصراف، بينما وقف جاد الله جامداً في مكانه، دون أن يرافقه إلى الباب، أو يجامله بكلمة توديع، وما أن خرج حسنين من الباب حتى جاءه صوت ميمونة في فرح :

ـ « ألف مبروك يا جاويش حسنين . . لسوف أحضر أنا على عيني وعلى رأسي . . يا ألف نهار أبيض . . »

★ ★ ★

ومضى حسنين

وبقي جاد الله قلقا، وكأنه يقتعد جمراً من نار عاتية، إن زواج ابنة حسنين قد أحنقه أشد الحنق، وأثار في رأسه العديد من الخواطر، وحـرك في نفسه عذاباً لا حد له، هذا الرجل يحقق أحلامه برفق وهدوء وبلا إمكانيات، ويصعد السلم وهو خاوي الوفاض، فكيف يصـدق جاد الله أن ابنة السجان حسنين النكرة .. الفقير ... تتـزوج هذه الزيجة الحسنة .،. بل الممتازة .. مهندس كفء من شركة « عثمان أحمد عثمان »؟؟ هل أصيب ذلك المهندس بالعمى والبلاهة؟؟ وما الذي أتى به إلى « عزبة السجانة » ليختار « فريدة» ... فريدة بنت السلطان حسنين ؟؟ ألم يدخل تلك البيوت القميئة التي تشبه الأقبية العفنة، ألم ير حثالة البشر من السجانة وأبنائهم وبنـاتهم ونسـائهم، وهم يثـيرون الضجيج، ويتبـادلـون السباب والشتائم البذيئه ؟؟ لا بد وأن في الأمر خدعة راح ضحيتها سيادة الباشمهندس، أو أن حسنين يبالغ في الأمر، ويضفي على زوج ابنته ما ليس فيه من صفات ومركز ورخاء .. الأمر بالنسبة لجاد الله ليس مسجداً أو صالة احتفالات فخمة، وإنما هو الغيرة الكاسحة التي اهتز لها كيانه، وارتجت لها فلسفتة !! نعم .. تلك هي الحقيقة التي يخفيها جاد الله في داخل نفسه الملتوية السوداء التي تكره كل سعادة ونجاح عند الآخرين .. فهو يظن أن أسلوبه في الحياة هو الأسلوب

الأمثـل إن لم يكن الوحيد للوصول إلى الغايات، لكنه يرى لدى حسنين وجها آخر للسعادة . . يرى رجلاً واثقا مطمئناً، ويرى زوجاً لا يسمـع لها صوت، تتصف بالعفـة والكمال، ويرى فريدة وهي توشك أن تزف لرجل من خيرة الرجال، ومن يدري قد يكون ولده الموظف هو الآخر في طريقه لاصطياد زوجة من بنات الأكابر. إن « محمود » بن حسنين هو الآخر في منهي الذكاء، الم يكن يعطي دروساً خصوصية في إجازة الصيف، ويحقق دخلاً لا بأس به وهو لم يزل طالبا صغيراً؟؟ ما معنى ذلك كله؟؟

ونـظر جاد الله إلى ابنته البالغة من العمر اثني عشر عاماً، كانت تجلس متسخـة الثياب، منتفشـة الشعر، تتثاءب وعيناها محتقنتان وهي تحملق ببلاهة في كتاب موضوع أمامها على « طبلية » خشبية، ووجـد نفسه ـ على الرغم منه ـ يقارن بينها وبين « فريدة » بنت حسنين، أثارته المقارنة، وملأت قلبه بمزيد من الغضب والحنق، فهب من مكانه، وذهب إلى حيث تجلس ابنته، وقال فجأة:

ـ « ماذا تفعلين يا شادية ؟؟»

انتفضت في رعب، طار النـوم من عينيها، انهمرت دموعها وقالت وهي ترتجف :

أذاكر يا بابا . . »

أمسك بأذنها في غلظة، والبنت تتلوى، وقال :

ـ « تذاكرين يا بنت ميمونة؟؟ وفي آخر العام تأتي الشهادة مليئة بالكعكات الحمراء . . ما زلت في الثالث الابتدائي ومن هم في مثل عمرك وصلوا المرحلة الإعدادية . . لو رسبت مرة ثانية فسأذبحك كما تذبح الفرخة . . مفهوم ؟؟»

وفر باقي الاطفال مذعورين حينما رأوا ما حلّ بأختهم الكبيرة، وأتت ميمونة مهزولة، وهي تصيح :

ـ « ماذا تريد أن تفعل بنا ؟؟ حرام عليك يا رجل . . قلت لك ألف مرة أنها تحتاج لدرس . . وأنت يا جاد الله الفلوس عندك أهم من مستقبل ابنتك وأولادك . . »

لم يكترث لقولها، عاد إلى مكانه المعهود في الغرفة، وجلس فوق الكرسي الخشبي، وأخذ يتطوح في انفعال ظاهر :

ـ « قلت فلنسمها « شادية » يومها كنت متعشقا لأغاني شادية وفنها . . . وجمالها . . . فإذا بشاديتي بلهاء كالبومة، يضرب بها المثل في الغباء والقذارة . . وبنت حسنين تتزوج من مهندس محترم . . وأنت من سيتزوجك يا بنت ميمونة ؟؟ »

صرخ في حدة :

ـ « ميمونة . . »

ـ « أنا أهه . . . »

وضع يده في جيبه، وأخرج جنيها، ثم تمتم :

ـ « تعرفين الطريق . . »

هزت رأسها في حسرة . . »

ـ « أعــرف . . »

وتنـاولت الجنيه، وارتـدت ملاءتها، وخرجت لتشتري له وجبة «الأفيون» اليومية، كانت تغمغم: « ألن يتوب الله عليك»

ـ « هتف في حنق : ماذا تقولين ؟؟ »

قالت وهي تشد الباب وراءها بعنف : « لا شيء . . »

خُيل إليه أن قوى قاهرة خفية تجذبه إلى هناك، وهو يتسلل عبر الـظلمات إلى مخبـأ الـطقوس النارية، حيث تتعرى نوازع الحيوان الجائع في نفسه، وعلى الرغم من عشرات المشاهد التي تتعاقب عن يمينه وشماله ومن أمامه إلا أنه لم يكن يرى إلا وجها واحداً يتبدى في غلالة الضباب والمطر، ذلك هو وجه « انتصار »، عندما يضمها إلى صدره يخيل إليه أنه أضاف عمراً إلى عمره، وثروة على ثروته، وهو عندما يسرق يشعر بلذة آثمة تهزه هزاً، وإذا ما سلب أو نهب أيقن أن حقه الضائع قد عاد إليه، وإذا مارس الخطيئة بدا له أنه يؤكد ذاته التي رزحت طويلاً تحت نير القهر والحرمان . .و« جاد الله » يشـك دائـماً في قيم الحياة النبيلة كالخير والشرف والحب . . فهي ليست قيما عليا كما يعتقد الغافلون، إنها إن وجدت، وبَحثت عن أصـولها تجدها ضاربة بجذورها في أرض المنافع والأنانية والمادية، حتى صديقه الطيب حسنين الذي يهرب من المعاصي، ويقبل على الطاعات، وينهمك في الذكروالعبادة، تحركه دوافع . . نعم دوافع مادية صرفـه . . حسبما يعتقد جاد الله ـ منها الستر، والنجاة من الكوارث، والبركة في الرزق، والحماية من غدر البشر، وأخيراً الطمع في جنة الموعودين . . هي مصالح إذن، وإن كانت من نوع آخر، تختبىء تحت عباءة الزهد والطاعة . .

النجوم تختفي تحت تراكم السحب القاتمة، وفي عالمه النفسي الموغل في هاوية سحيقة، تثور عواصف وزوابع، أية لعنة قد شكلته على هذا النحو المتمرد الثائر الذي لا يقاوم ؟؟ ذات يوم ارتكب عبثاً صبيانأ مع حفيدة « الباشا » هو يذكر ذلك تماماً، كان في الرابعة عشرة من عمره، وجد خديها متوردين، وعيناها الجميلتين تهمسان بأغنية ملائكية سعيدة، ونضرة شفتيها تترجم عن ثمرة عذراء شهية .. لم يتمالك نفسه أن قبلها .. يا لها من قبلة قاتلة !! رأته إحدى الخادمات وهو يقبل الطفلة ذات الأعوام السبعة، كان يوماً .. ساقوه إلى محكمة لا مثيل لها .. كل من في القصر الكبير آذاه .. كانوا يتعبدون إلى سيد القصر بإيذاء « جاد الله » الحافي .. المرتجف .. النحيل .. ناظر العزبة كان من رأيه أن يذبح كما تذبح الشاه ويُرمى لحمه للكلاب، وشيخ الخفراء أطبق على عنقه، وأراد أن يقضي عليه خنقا، أما الكاتب العجوز فقد قال « ارجموه بالحجارة، إنه ملعون مثل أمه وأبيه .. » وكانت سيدة القصر أكثرهم رحمة، اذ رأت أن يكوى بالنار في وسط رأسه، ثم يجلد .. كان حكما دون استئناف،عند التنفيذ شعر برأسه يلتهب، وأثناء الجلد لم يشعر بالألم إلا في الضربات الأولى .. منذ ذلك اليوم ترسبت في أعماقه مئات المشاعر السجينة .. لكي يعيش لا بد وأن يجبن .. ويضغط على غرائزه .. ولا يصح أن يعبر عن كل ما في نفسه .. وعند تطبيق

فلسفته تلك، ظهر أنه لن يستطيع التعبير بحرية عن شيء ذي قيمة .. بل كان يعبر بصورة آلية عكسية عما يختمر أو يهدر في نفسه .. فإذا أراد أن يبكي ضحك، وإذا هم بأن يغضب ويلعن، يجد نفسه يبتسم ويمرح .. وطالت وامتدت جذور الكذب والنفاق في نفسه، وعندما سقطت سلطة القصر وساقوا الباشا إلى حيث لا يعلم، وانطلقت هتافات الثورة أفلت من آلاف القيود، ظن أنه قد ورث سلطة الباشا الكبير، لكنه بعد لأني تبدت له حقيقة مُرّة .. إنّ له أن ينطلق ويمرح ويتحرر في دائرة معينة محددة، وفي طريق واحد مرسوم، ويمشي بحساب دقيق، شعر أن القيود القديمة تقترب من ساقية، فالباشاوات الجدد أذكى وأدهى .. بل وأقسى .. وتأكد من ذلك حينما أصبح سجّانا في السجن الحربي، حيث نال اللقب الأعظم « وحش السجون الحربية » ... ليكن، عليه أن يحدد موقفه بوضوح .. إما أن ينحاز للمجد المنهار في قصر الباشا، أو يستسلم للسلطان الجديد ويحمل الكرباج، أو يقف على الحياد .. كان الاحتمال الثالث عبثا، فالحياد أصبح خطيئة، والماضي أبو الخطايا .. أدرك جاد الله أنه أصبح أسير وجهة واحدة .. وجرى مع الغالبية العظمى يهتف « مات الملك، يحيا الملك».

تُرى ما الذي يجعل جاد الله يتداول تلك الذكريات ؟؟ ليته ينسى هذه الكوابيس اللعينة، لو كان في إمكانه أن يمحو الأمس من سطور حياته السابقة لفعل، لكنه عاجز .. عاجز تماما إزاء ذلك،

قد يستطيع أن يكيف حاضره حسبما يشتهي . . لكن اليوم الذي يمضي لا سلطان لأحد عليه، وهنا النكبة الكبرى . . طالما قال لنفسه . . « دسْ يا جاد الله على الأحزان القديمة . . اسحقها سحقا . . وانسَها تماماً تعش سعيداً . . » لكن الأمس يتحداه . . الذكريات المروعة ترفع رأسها من تحت الركام . . العيون الصارمة الحادة النظرات تواجهه في تحدٍ . . والوجوه السوداء الملطخة تبرز له . . وهو يحاول أن يحطمها . . أن يطمسها . . أن يغرقها في محيط هائل يغلي . . لكنها تبرز وتحرك لسانها . . إنه يكاد يجن . . يريد أن يهرب ولا هروب . . قالت له ميمونة ذات يوم أنه من المحتمل أن يكون أحد قد سحر له، وأن السحرة في هذه الأيام يكتبون أوراقا لعينة في حق من يريدون، ويقذفون تبعا ويذهم في المقابر المهجورة، أو في البحار والأنهار، وأنه لا شفاء مما يعانيه « جاد الله » إلا إذا تم العثور على « المكتوب » . . وكيف يعثر على المستحيل، في زمن المستحيل، قالت ميمونة:

ـ « هناك أناس برعوا في ذلك . .يستخدمون الجن والأرواح . . فما عليك إلا أن تدفع « المعلوم »، وتعطيهم « الأثر » . . قطعة من ملابسك مثلاً . . خصلة من شعرك . . »

وذهب يبحث عن « المنقذ » حدثوه عن رجل بارع في« عين الصيرة» فذهب إليه دون فائدة، وأكدوا له أن في طنطا امرأة ذات باع

طويل في هذا المجال، فسافر إليها، وزار السيد البدوي في طريقه، قالت له المرأة يومها :

ـ « وعد ومكتوب يا ولدي . . »

ـ « والحـــل ؟؟ »

ـ « ليس منه هروب يا ولدي . . »

ـ « ولماذا جئت إليك إذن ؟ »

ـ « جئت لتظهر خضوعك . . »

ـ « لقد خضعت . . فما الفائدة ؟؟ »

ـ « تلك هي البداية . . . »

ـ « بداية بلا نهاية إذن . . »

ـ « بالعمر الطويل تبلغ الأمل . . »

ـ « ومن أدراني أن يطول عمري . . نحن في زمن يقصف أعمار الشباب . . وأنا ممن لا يصبرون . . »

ـ « وماذا تريد إذن ؟؟ »

ـ « شيء واحـــد . . أن أنسى المـــاضي . . وأنجـو من الكوابيس . . »

ـ « قل يا رب . . »

ـ « يا رب ؟؟ إنني قلتها ألف مرة . . »

ـ « هي مفتاح السر . . قلها من قلبك . . »

ـ « تتحدثين مثل حسنين . . »

ـ « حسنين على حق . . »

ـ « هل تعرفينه ؟؟ »

ـ « أعرف أن الحق واحد . . »

ـ « أنت معذرة لا تعرفين شيئاً . . أصبح الحق في زماننا بألف وجه ووجه . . »

ولم يغادر طنطا إلا بعد أن ذهب وأبلغ عنها الشرطة، فقبضوا عليها متلبسة،وقد وجهوا إليها تهمة التدجيل، وحينما كان يؤدي شهادته ضدها سمعها تقول :

ـ « ملعون أينما ذهبت . . »

ـ « ليكن، فلم يعد الأمر يهمني . . »

وكم كانت دهشته عندما قالت المرأة :

ـ « أنا لم أتقاضى منه قرشاً واحداً، ولم أكتب له ورقة، أو أصف له دواء . . كل ما في الأمر إنني وجهته ببضع كلمات . . فهل القانون يمنع النصح ؟؟ »

وذهل إذ رآها تغادر « القسم » قبل أن يغادره هو . . طال الطريق . . والـذكـريات تنثال . . وجاد الله يغذ السير، وحينما يغرق في طوفان الذكريات والصور القائمة الدارسة يزيد من سرعته، وكأنه يهرب من قاطع طريق يطارده ويلح في طلبه، وعندما وقعت عينه على مسكنها. . رقص قلبه من النشوة وغابت الذكريات بدا كأنه إنسان آخر . . كان الصمت يرين على المكان . . تصورها تجلس في الداخل تنتظر . . واقشعر بدنه وهو يفكر في اللقاء . .

ودق الجرس . .

انفتح الباب على الفور . .

أطلت عليه بوجهها الفاتن الذي لا يبدو عليه أي أثر للخوف أو التردد . . احتواها بين ذراعيه قبل أن تغلق الباب . .

همست وهي تتفلت من بين ذراعيـه :

ـ « في العجلة الندامة . . »

قال وهو يجلس فوق المقعد لاهثـا:

ـ « شبعت ندماً . . »

قالت وهي تبتسم :

ـ « أوحشتني . . »

ـ « لو استطعت لعشت معك بصفة دائمة . . »

ـ « أنت معي دائماً . . »

ـ « صحيح ؟؟ »

ـ « ألا تعرف ؟؟ »

ـ « لم أعد أعرف شيئاً . . »

هدأت أعصابه رويدا، وأخذ يتناول حبات البرتقال، وينزع عنها قشرها بيد لم تزل ترتجف، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث دون هدف محدد، مجرد ثرثرة عن محفوظ والسجن والأحوال العامة، وغلاء الأسعار، والمرتبات التي لا تفي بالمطلوب، وخراب الذمم، وفساد الضمائر، كان مجرد استعراض لهموم عامة أو خاصة، دون التصدي للحل الأمثل، وبدا أن المشاكل الخاصة هي محور الكلام، أو المشاكل الكبرى التي تخص الناس جميعاً، فلم يكن لها حيز يذكر، وخاصة أن الصحف والإذاعة وخطب المسؤولين تتناولها بكلام كثير فيه الكفاية، وقد جرى العرف أن الكلام في مثل تلك القضايا الكبيرة محفوف بالمخاطر، ويا ويل من ينتقد علانية، فإما أن يبلغ عنه عضو في الحزب، أو يتصادف ويسمعه مخبر، وفي كلتا الحالين، تقع الكارثة . . ثم إن انتصار لا يروق لها الحديث في مثل تلك الأمور التي لا تهمها، بل ولا تعرف عنها شيئا يذكر وجاد الله هو

الآخر قد وصل إلى قناعة لا تتزعزع .. « أنا وليذهب الجميع إلى الجحيم »



استطاعت « انتصار » بلباقة تبدو فطرية أن تشد انتباه إلى المشروع الأساسي في علاقتها به، وكانت خطورة الموضوع كفيلة بأن تجعله يستيقظ من أحلامه الجنسية المسعورة، إن الأمر جد لا هزل فيه، ولا يصح أن تضيع الأيام هباء، لأنها لا تحسب بالعدد ولكن بما ينجز فيها من أعمال مفيدة، والإنسان لا يستطيع أن يأكل حُباً ويلبس حُباً ويشرب حُبا، تلك هي الحقيقة المرة، فالمعدة لها مطالب، وتكاليف الحياة باهظة والدخل محدود، وجاد الله لن يستطيع أن يفتح مكتبا للاستيراد والتصدير.

أو ينشىء شركة للمقاولات وهو لا يملك شيئا يذكر، كانت هذه كلها بديهيات بالنسبة لجاد الله آمن بهامن قديم، وشرحت له انتصار خطتها ببساطة لا تعقيد فيها، سوف تنقل إليه ماكينة الطباعة ولوازمها، وستوضع في بيته في مكان أمين لا يصح أن يدخله أحد مهما كان عزيزاً عليه، وسيقوم هو بطبع الأوراق المالية الزائفة، وسيأتي من يستلمها منه كل صباح، وستقوم هي ومن معها بالتوزيع أو الترويج وحصته في الربح ثلث الإيراد، لن يكون هناك عقد مكتوب ولكنها الثقة والأمانة .. ولم تضيع « انتصار » وقتا إذ أخذت

جاد الله إلى غرفة داخليه، ثم كشفت الغطاء عن الماكينة، وأخذت تشرح له طريقة الإعداد والتشغيل، واستعمال « الاكليشهات » والتجفيف والتقطيع وتركيب الأوراق وما إلى ذلك وأجرت أمامه عدداً من التجارب العملية، ثم تركته يقوم بنفسه بتأدية العمل، كي يتدرب بكفاءة، كان يعمل في حماسة منقطعة النظير، وشعر بالسعادة تغمر كيانه، حين رأى الأوراق الماليه بين يديه، إن الأمر في غاية البساطة، وهو أسرع وسيلة لرفع مستواه الاقتصادي، واستدار إليها فجأة وقال :

ـ « ولماذا لا نطبع العملة الصعبة ؟؟ إن لها سوقا رائجة . .

قالت في دهاء :

ـ « صبراً يا جاد الله . . »

ثم أخرجت من تحت الوسادة نماذج من الدولار والاسترليني، وأبرزتها إليه، فأخذ ينظر إليها مبهورا، وتمتم :

ـ « لأول مرة في حياتي أرى العملة الصعبة . . تُرى لماذا سموها صعبة ؟؟ ألا تعرفين ؟؟ »

ـ « لأن تزييفها صعب جداً . . »

ثم قالت وهي تحرك يديها أمام وخلف في حركة ساخرة :

ـ « لكن يا حسرة الجنيه المصري سهل جدا . . ليس فيه

أية صعوبة .. تستطيع أن تطبع ألفاً في ليلة ..»

ثم أخذت تشرح له سهولة توزيع العملة الصعبة، لأنها تتم دائماً في خفية، ولا تروج إلا في السوق السوداء، بسبب القوانين الصارمة التي تطبقها الحكومة، أما الجنيه المصري فهو صريح متواضع، يمكنك أن تشتري به الفجل .. اللحم .. الكرمب .. والكرشة .. وتعطية مطويا لكمساري الأتوبيس أولسائق التاكسي، «ألم أقل لك ؟؟ الجنيه المصري متواضع مثلنا .. وعلينا أن نبدأ بهذا المخلوق الطيب المطيع الذي لا يسبب كثيراً من المشاكل.. » لكن دع التوزيع لنا .. نحن لدينا الجهاز المدرب لذلك ..

قال جاد الله :

- « ولماذا لا تبقى الماكينة هنا، ونشترك في العمل معاً ؟؟ »

ردت انتصار في حزم :

-« لا يحق لك المناقشة في هذا الأمر، هذا قرار لا رجعة فيه، ولك حق الرفض أو القبول .. وإذا لم توافق، فليذهب كل منا لحال سبيله .. »

قال في لهفة مشوبة بالخوف :

- « أنا موافق .. فقط أردت أن أعرف .. »

- « لقد شرحت لك الأمر أكثر من مرة .. أنت رجل

حكومة، والشك فيك بعيد الاحتمال . . تستطيع أن تنتج بمنتهى الاطمئنان أما نحن فالعيون علينا ولذا تراني أنتقل من مكان لمكان . . الشهر القادم سوف أغير مسكني . . الخطة متشعبة ودقيقة ولا مجال لشرحها بالتفصيل..النجاح أكيد مائة في المائة بشرط واحد..»

هتف في تشوفٍ وعجلة :

ـ « ما هــو ؟؟ »

ـ « الالتزام والأمانة . . »

ـ« ماذا تعنين؟؟»

قالت وهي تعيد الغطاء فوق الماكينة وتحبكه :

ـ « قد يدفعك الطمع لإنتاج المزيد . . وقد تخفي عنا كمية لتوزعها لحسابك . . حذاري . . هذه أخطر نقطة . . »

ـ « أوَ تشكين فيّ ؟؟ »

ـ « مجرد لفت نظر . . »

اقترب منها حتى كاد يلاصقها :

ـ « ومتى نبدأ ؟؟ . . »

ـ « في ساعة الصفر . . »

قهقه في مرح :

- «تتحدثين كرجال الجيش . .»

أشارت بيدها إلى رأسها قائلة :

- « هنا مخ . . »

- « ولماذا سقط محفوظ ؟ . . »

- « الرجال يسقطون . لحماقتهم . . أما أنا فلا . . »

أحضرت زجاجة من الويسكي وكأسين ومزة شهية . . جلست في مواجهته متوردة الخدين ، وشعرها الناعم مرسل على كتفيها العاريين ، اشتعلت رأسه وهو يضع الكأس على شفتيه . .

سمعها تقول :

- « سأعلمك الصبر . . »

- « الصبر يقتلني . . »

- « بدونه يفسد كل شيء يا جاد الله . . »

- « هكذا يقول حسنين . . »

قالت في دهشة :

- « من حسنين هذا ؟؟ »

- « صديق مغفل . . أبشع صفاته القناعة . . »

ـ « ابتعد عن أعز أصدقائك في هذه الأيام .. في البداية على الأقل .. ولا تحاول أن تظهر بمظهر الثري .. عشْ كما أنت .. بل أظهر لهم التعاسة والذل .. واقترض منهم إذا استطعت .. أتفهم ؟؟

نظر إليها وقد لعبت الخمر برأسه وقال في إعجاب :

ـ « أنت أستاذة .. »

ـ « لا تبالـــغ .. »

ـ « من يسمعك يظن أنك خريجة جامعة .. »

ـ « الحياة أعظم جامعة يا جاد الله .. »

قال مقهقها :

ـ « نحن خريجون في دفعة واحدة ... »

ـ « لكن يا للخسارة .. ضاعت شهاداتنا في مكتب القوى العاملة .. »

وثب من فوق مقعده، تشبث بها، وهم بتقبيلها، قالت في حزم :

ـ « ليس الليلـة .. »

ـ « مستحـــيل .. »

ـ « السمع والطاعةيا جاد الله .. »

- « لقد مللت السمع والطاعة في حياتي العسكرية . . أعشق التمرد . . هذا فوق الطاقة . . »

هرولت، ثم فتحت الباب قائلة :

- « عد إلى بيتك . . »

- « أنا لا أفهم . . »

- « ذلك اختبار . . »

جرّ رجليه في تثاقل، شعر بالنسمات الباردة تنفذ إلى عظامه لكن جسده الحران كان يقاوم، حاول أن يُسرع الخطى، غير أنه أدرك ما به من الترنح، أشار إلى سيارة أجرة، وهتف :

- « إلى عزبة السجانة . . »

تمتم السائق :

- « أعوذ . . بالله . . »

الناس في « عزبة السجانة » يشمون رائحة كل شيء، فهم يتنسمون ريح الفضائح مثلما يتنسمون رائحة الباذنجان المقلي بالسمك والكرنب المحشو، وهذا المجتمع الصغير قد انتقلت إليه عدوى السجن والسجناء، إذ قلما يثق السجانة في بعضهم البعض، وكذلك الزوجات والاولاد، والمشاجرات تنشب بينهم من آنٍ لآخر، وتتسم بالعنف والأصوات العالية، وفي كثير من الأحيان تتلون، ولو بقطرات قليلة من الدم، تنزف من فم أو أنف نتيجة لكمة أو عضة أو ركلة، وتراهم يتسابقون إلى قسم الشرطة القريب على الرغم من أنهم شرطة، لكن الصلح يتم في النهاية، لأنهم يدركون مخاطر التمادي في العداء والمشاكسة، ولا يعدم الأمر أن يكون بينهم رجل طيب كحسنين، أو امرأة صالحة كزوجته. وأولاد مؤدبين كأولاده، والسجان يقضي معظم وقته في السجن، فهم يسيرون على نظام اليوم الكامل، أي منذ السابعة صباحاً، وحتى الخامسة أو السادسة مساءً، فتراهم يعودون مرهقين لا يحلمون بأويقات من الهدوء والراحة والاسترخاء ولكن كيف؟؟ إن الضجيج العالي، والمشاحنات الدائمة، والضيق الذي يهيمن على النفوس، ويجرهم إلى المعاناة الدائمة، ويدفعهم دفعاً إلى الخصومات والتي كثيراً ما تسبب النساء والاطفال فيها، لكن الأمر الملفت للنظر أن السجانة في

السجن، غيرهم في العزبة، ففي السجن يوحدهم النظام والهدف المشترك، ولا بد أن يكونوا يداً واحدة في مواجهة هذه الفئة الفظة الشرسة من المسجونين ، ومهما حدث بينهم من شقاقٍ في العزبة، فإنه ينتهي بسرعة، ويتناس الجميع ما كان بينهم من خلاف . . .

•

تسلم « جاد الله » ماكينة الطباعة الصغيرة ذات مساء، ووضعها في مكانها المختار، دون أن يدري أحد، حدث ذلك في غيبة زوجه وأولاده، عند منتصف الليل، وكشف جاد الله عن وجه الماكينة، وأخذ يتطلع إليها في سعادة وعشق، هذه الآلة العجيبة سوف تنقله من خال إلى حال، وسوف تحل عقده النفسية المزمنة المرهقة، الأغبياء أفهموه أن العلاج لدى أدعياء الطب الروحاني حيث البخور والرقى والتعاويذ، وزعموا أن المتخصصين في العلاج النفسي من الأطباء أدرى بحاله،وأن بضعة أقراص ونصائح سوف تقضي على كل متاعبه ومشاكله، وتمتم جاد الله وهو يرمق الماكينة . . « الحمقى لا يعرفون الحقيقة . . المشكلة معروفة . . وعلاجها «معروف»، ثم انحنى على الآلة وأخذ يقبلها ويهمس في حنان « أنت العلاج . . الفقر لا علاج له سوى المال، والجوع لا يذهب إلا بالطعام، والحرمان لا يزيله إلا الشبع،وليست هناك أقراص أو إبر أو نصائح تشفي العلة . . الناس يخدعون ويغشون ويكذبون . . وأيا كانت النتيجة فلا بد أن أعيش كما يحلو لي، ، كان جاد الله شاكاً

إلى أبعد حدود الشك، فالناس في رأيه يظهرون خلاف ما يبطنون، ويعيشون عبيد التقاليد والنصائح الموروثة، ويتشدقون بالقيم النبيلة، وهم أبعد ما يكونون عنها، ويفعلون في الخفاء عكس ما يقولون في العلن . . .

حين دخـل غرفة النوم متأخراً، يتسلل على أطراف أصابعه، جاءه صوتها الواهن من أثر النوم :

ـ « أين كنت يا جاد الله ؟»

صمت برهة، ثم قال وهو يلقي بجسده على السرير:

ـ« لا تسأليني يا ميمونة عما أفعل . . »

ـ « ألست زوجك ؟؟ »

ـ « اعرفي حدودك يا ميمونة . . نامي . . »

ومرت أيام قليلة وهو في شبة عزلة تامة عن العالم من حوله، يجلس في السجن شارداً، ويمارس عمله العـادي داخل العنبر متكاسلاً، وتقوم الدنيا وتقعد وهو لا يتحرك إلا نادراً، وعلى الرغم من أنه يأكل جيداً، إلا أن الشحـوب بدا جلياً على وجهه، وبدا أنه قد خفَّ وزنه، قال له السجين محفوظ :

ـ « لقد نجحت يا جاد الله في الامتحان . . »

ـ « كيف عرفـت ؟؟ »

-« الأخبار تأتيني يوماً بيوم . . وسوف تتسلم اليوم خمسمائة جنية دفعة واحدة . .

نظر إليه جاد الله في خبث قائلاً :

-« خمسمائة وعشرين . . وضحكا . . »

لأول مرة يستحوذ جاد الله على هذا المبلغ، يا لها من لحظات جميلة لا تُنسى، إنه يشعر بالنشوة العارمة حتى قبل أن يتسلم المبلغ، إن رائحة الأصباغ والمواد لم تزل عالقة في أنفه، والكوابيس تحولت إلى شيء آخر . . إنه يفكر في الخزائن الحديدية . . ويتوجس خيفة من اللصوص، ويعمل ألف حساب للعيون الحاسدة والحاقدة، كيف يتصرف؟؟ المال هو الخطوة الأولى، لكن لا بد أن تكون هناك خطوة ثالثة ورابعة وخامسة، « الملعونة ميمونة ـ هكذا قال لنفسه ـ طرحت فكرة وجيهة . . نعم . . قالت منذ فترة لماذا لا نشتري بيتاً بما ادخرناه من مال، ونستفيد من إيراده ؟؟ هذا صحيح . . هناك منزل معروض للبيع على ناصية الشارع . . الثمن في حدود ثلاثة آلاف جنيه . . معقول . . لا بد وأن يتم البيع والشراء سرًّا . . أستطيع أن أدفع العربون . . ثم . . الماكينة تجلب لنا مالاً . . تبيض ذهباً . . قالوا لنا في الجيش قديما : الهجوم أفضل وسيلة للدفاع . . »

أفاق جاد الله على وكزة من محفوظ وهو يقول :

ـ « أين كنت ؟؟ »

ـ « هنا . . »

ـ « إنني أنادي جاد الله . . جاد الله . . فلا ترد . . »

ـ « الأمر ليس هينا يا محفوظ . . »

ـ « وهل يخاف وحش السجون ؟؟ »

ـ « تستطيع أن تقول أنه نوع من الحرص . . »

ـ « انتصار تعرف كل شيء . . لا تخف . . »

ـ « أنا لا أخاف يا محفوظ . . لكني كلما فكرت في احتمال السقوط . . وأن أساق إلى التحقيق . . والناس تتفرج عليّ . . أكاد أجن . . لا أخاف، ولكن أريد ألا يشمت بي أحد . . »

تلفت محفوظ كاللص، ثم قال في تؤدة :

ـ « يا جاد الله نحن إخـوة . . تعلم أنّ الأمر في البداية يكون مزعجاً . . مخيفاً . . كالكأس الأولى . . وسرعان ما تتعود يا جاد الله .

وتصبـح مدمنـاً . . تشرب زجاجة كاملة فلا تسكر . . وقد كنت تتطوح من كأس واحدة . . وسيأتي يوم تصبح الماكينة كالمزاج . . لا

ترتاح ولا تسعد إلا إذا أدرتها . . والمأساة لا تحدث إلا عندما تتوقف عن « الإنتاج » . . وأنت تسمع هذه الأيام كيف أن الرئيس في كل خطبة يدعو الشعب إلى زيادة الإنتاج . . »

وقهقه محفوظ، وتبعه جاد الله . .

لكن محفوظ جرى بعيداً فجأة وهو يقول « سعادة المدير وصل » هبَّ جاد الله مذعوراً، وصرخ بأعلى صوته :

- « تمام . .

كل مسجون يدخل زنزانته . .

اشتد شحوب وجهه، حتى كاد يغمى عليه، كان يرمق المدير وهو يتجول في الدور الأرضي وحوله نخبة من الضباط، وأصوات الصفارات تتردد هنا وهناك، أمسك جاد الله بالسور الحديدي حتى لا يسقط، كان في الدور الرابع، وداهمته الهواجس، يكاد المريب يقول خذوني، خُيل إليه أنَّ دموعه تسقط على الرغم منه، لكنه تماسك، ووجد نفسه يردد على الرغم منه « يا رب اجعله خيراً . . تُرى لماذا أُتى اليوم ؟؟»، ماذا جرى ؟ ليست هذه أول مرة يتجول فيها المدير في أنحاء السجن، وحانت منه التفاته إلى الأمباشي حسنين، كان يقف هادئاً متزنا، يبدو عليه عدم الاهتمام أو الاكتراث . . وراود جاد الله خاطر . . إن راحة البال تساوي ملايين

الجنيهات . .

ورفع المدير رأسه إلى أعلى، وبحركة لا إرادية فعلت الكوكبة التي حوله مثلما فعل، ظن جاد الله أنهم ينظرون إليه، ظلّ واقفا متصلبا رافعاً يده بالتحية، وأخذ قلبه يدق كأنه في سباق جاد . . مرت به لحظات لم يعد يشعر بشيء . . كان كالنائم . . لكنه سرعان ما أفاق . . وعندما عاد ينظر إلى الساحة الأرضية وجد المدير وجماعته يغادرون العنبر . . وسمع اصطكاك الباب الحديدي الخارجي . . تنهد في ارتياح عميق . . جر ساقيه صوب مقعده الخشبي وارتمى خائراً، والعرق يتقاطر على جبينه . . أيُّ عذاب وأي ذلّ !!

عندما يطمئن على مستقبلة، ويصبح معه قدراً من المال يكفيه، فسوف يستقيل . . سوف يحرر نفسه من هذا الذل . . لكن متى ؟؟ الأيام تمر ثقلية بطئية، وهو يتعجل لكن انتصار علمته أن في العجلة الندامة . .

جاء إليه صديقه الأمباشي حسنين وقال :

- « يبدو عليك التعب . . »

نظر إليه جاد الله في امتنان قائلاً :

- « لا أنام جيداً . . »

قال حسنين في ودّ ومحبة :

- « من « الزفت » الذي تتعاطاه . . »

- « حسنين . . لا تقل هذا الكلام . . »

- « إنه يقتلك ببطء . . »

- « إني لا أجد ما آكله، فكيف تظن أني أشتري ال . . »

- « الكيوف ـ وأنت تعرف ـ تقصف العمر، وتذهب العقل . . وهي حرام شرعاً . . » .

وقبل أن يعلق جاد الله، وجد يد حسنين تلامس جبينه ويهمس في حنان بالغ :

- « حرارتك مرتفعة »

- « لا أعرف . . »

- « اذهب إلى طبيب السجن، وخذ دواء وراحة اليوم . . »

وجره حسنين على الرغم منه

ومضى جاد الله إلى جواره كطفل وديع، أدرك أن مفاصله لا تقوى على حمله، وأن ظهره يؤلمه أشد الألم، وأن مجال الرؤيه أمام عينه يضطرب، تمتم :

- « أكاد أسقط . . »

قال حسنين وهو يحتضنه :

ـ « استند على ذراعي .. عندما تعود إلى البيت وتشرب كوبا من الليمون، وتأخذ قرصين من الأسبرين وتنام .. بأمر الله ستشفى، لا تخف .. »

كان يومـاً شاقـاً، أدرك فيه جاد الله أنـه أبسط مما يتصور، وعكة مرضية جعلته عاجزاً مقهوراً، داخله رعب قاتل، وصرخ :

ـ « أخاف أن أمـوت .. »

ردت ميمونة بثقة :

ـ « لا يموت أحد من الملاريا .. »

ـ « جسدي كله كان يرتجف .. »

ـ « هذا عرق العافية .. »

ـ « جففي هذا العرق .. وأزيلي عني الغطاء .. أضيئي النور يا ميمونة .. إني الآن أخاف الظلام .. لكأني في قبر .. »

حينها اتضحت معالم الأشياء في الغرفة الصغيرة بعد الإضاءة، فتح عينيه فرأى « شادية » ابنته وإخوانها يبكون في صمت .. اجتاحته مشاعر عاتية .. أخذ يهذي ويبكي كطفل .. قالت زوجه وهي تحاول التخفيف عنه :

ـ « أنسيت أنك وحش السجون .. »

لطمها بعنف، وهو يهدر :

- « اصمتي يا حماره .. لا أريد أن أسمع هذا الآن .. »

بعد ساعة ذهبت النوبة، واستعاد الكثير من نشاطه ووعيه، لكنه كان يشعر بالإرهاق، وقدّمت له ميمونة وجبة خفيفة، أخذ يمضغ دون شهية، والأولاد يجلسون في صمت .. دق الباب .. خرجت ميمونة لتفتح .. وبعد لحظات كانت انتصار أمامه، لقد تلفعت بعباءة سوداء، وغطت وجهها بخمار رقيق أسود، وبدا جمالها مثيراً فاتناً لم يستطع الخمار أن يطمسه .. أدركت على التو أنه مريض .. تمنت له الشفاء في كلمات قصيرة، قال جاد الله لميمونة :

- « احضري الشاي .. وخذي الأولاد معك .. »

عندما أصبح جاد الله وانتصار وحيدين، أخرجت له لفافة ورمت بها أمامه، تمتم :

- « خمسمائة جنيه .. »

ردت - « وعشرون .. حقي وحقك .. »

نسي الداء والخوف والذل والمدير وحسنين .. شملته فرحة غامرة أنسته كل شيء سوى أنه أصبح يملك نصف ألف وزيادة، لقد تحقق الوعد .. أيها الحلم الذي طال .. عليك اللعنة .. تعذبت في انتظارك طويلاً، وأنت لا ترحم .. »

همست انتصار :

ـ « مبسوط يا جاد الله ؟؟ »

نظر إليها بعينين تترقرق فيهما الدموع، وكانت نظرته فيها الكثير من الامتنان والتقدير .

استأذنت في الخروج، على أمل لقاء قريب، حاول استبقاءها لتشرب الشاي، فردت قائلة :

ـ « التـاكسي ينتظر عند ناصية الشارع . . وسأنتظرك يوم الجمعة . . مساءً . . »

ـ « بعد خمسة أيام ؟؟ هذا كثير . . »

ـ « على الأقل حتى تشفى . . وتستعيد نشاطك . . »

تسللت انتصار خارجة، جلس ينظر الى اللفافة في قداسة، فتحها . . أخـذ يلمس الجنيهات . . هذه نقود حقيقية فعلًا . . أصبح يعرف المواصفات جيدا . . جاد الله اليوم غير جاد الله الأمس . . وقدمت ميمونة بالشاي فقال لها :

ـ « اشربيه أنت . . واسقِ الأولاد شايا . . لقد شفيت . . وذهبت الضيفة . . »

ـ « من تكون »

ـ « زوجة سجين مسكينة . . ولايا يا ميمونة . . ربنا أمر بالستر . . »

وقف وسط الغرفة رافعاً هامته، خُيل إليه أن قامته قد طالت، وأنه أقوى من أي وقت مضى، على الرغم من مرور وقت قصير بعد نوبة الحمى، وشعـر بأن ذهنه أكثر صفاءً وذكاءً، وعزيمتة أشد مضاءً وجرأة . . أيمكن أن يفعل المال هذا الأثر كله ؟؟ في هذه الليلة نام نوماً عميقاً، قد يكون ذلك من أثر الدواء، أو نتيجة للإرهاق الذي عانى منـه أثنـاء النـوبة، وقد يكون السبب راجعا أساساً لإمتلاء جيبة، بهذا المبلغ الكبير لأول مرة في حياتة، أعطى لأولاده أربعين قرشاً دفعة واحدة لكل فرد عشرة قروش، اعترضت ميمونة بحجة أن هذا سوف يتلف الأولاد، وسيؤثر على ميزانية البيت، لكنه عاجلها بقوله، « ولك أنت أيضا جنيه كامل تفعلين به ما تشائين »، كانت مندهشة لما يفعل، لكنه طمأنها بأن الرزق وفير، والحال تيسرت، واصرف ما في الجيب يأتي ما في الغيب . . إنها نويـة مبـاغتة من الكرم، كنوبة الحمى التي اجتاحته . . لا قيمة لأي فعل كبير إلا أعقبه الرغد، ولذلك فإن الناس ينظرون إلى الأحداث والتغييرات من خلال ما ينعكس على الناس من رخاء . . كان جاد الله يؤمن بـذلك. وهـو الآن ينفذ مـا آمن بـه . . ذهـب إلى السجن واثقاً، لم يكن لديـه أدنـى رغبـة فـي أن يتقبل الإساءة ولا الموعظة الحسنة . . بل حتـى الأوامـر الـرسمية، في السجن ضبـاط يستـدينـون ويعملون جمعيات لفـك الأزمات المالية، والكبار منهم يقبلون الهدايا

القيمة . . كلهم عبيد المال . . وأثناء تفتيش السجانة كان يقف ثابتا واثقاً دون اكتراث . . ودخل العنبر كسلطان . . استقبله محفوظ بعد فتح الباب بابتسامة واسعة يدرك جاد الله معناها جيداً . . . وهمس محفوظ :

- « أين « التموين » يا ملك ؟؟ »

تموين ؟؟ ماذا تقصد ؟؟ »

- « آه . . كبرت علينا . . عندك حق . . أنسيت التموين ؟؟ »

فهم جاد الله ما يرمي إليه محفــوظ، إنـه نسي أن يحضر له كمية المخدرات الدورية حسب المواعيد المقررة، وقال جاد اللة :

- « كنت مريضاً . . والحمى تنفضني نفضاً . . »

- « وشفيت عندما أعطتك انتصار الدواء . . »

- « أيها الخبيث . . »

قال محفوظ وهو ينظف مقعد جاد الله الخشبي العتيق بخرقة بالية :

- « يمكنني أن أبحث عن وسيلة أخرىَ إذا كنت مشغولاً . . فقط أنتظر منك الإذن . . »

التفت إليه جاد الله قائلًا:

-« هذا أفضل إلى حين . . وعندما أستجمع نفسي المبعثرة فسوف أرتب لك كل شيء، أمهلني أسبوعاً . . . »

كانت تراود جاد الله فكرة عن وسيلة جديدة للتهريب لا تعرضه للخطر، وقد رأى أن يكلف أحد تجار المخدرات بالقدوم إلى السجن في وقت محدد، ثم يقذف باللفافة عبر السور، وفي هذا الوقت يكون جاد الله على مقربة من الموقع فيلتقطها، بعد أن يتأكد من عدم وجود خطر . . أنه لا بد أن يجمع بين مختلف مصادر الدخل، ولا خوف ما دام الأمر محاطاً بالكتمان، ومعتصمًا بالحرص الشديد . .

وجاء حسنين ليوقظه من أفكاره، وليسأله عن صحته، وبدا أن حسنين كان قلقا عليه بحق، نظر إليه جاد الله في تقدير وامتنان، لقد شام الإخلاص والصدق في عباراته على الرغم مما حدث بينهما يوم دعوة الزفاف، واعترف جاد الله بينه وبين نفسه أن حسنين هو الوحيد في هذا المكان الذي لا يروج عواطفه كسلعة في سوق البيع والشراء، وأنه صاحب قلب ذهبي نادر المثال.

- « لم أحب أحدا كما أحببتك يا حسنين . . »

تمتم حسنين :

- « أنت أخي يا جاد الله مهما كان . . »

وجاد الله يذكر أنه ناقم على أسلوب حسنين، ويعتبر قناعته خنوعاً، وإيمانه ضعفا، وأمانته بلاهة، واستغراقة في العبادة هروباً، إنه لا يتفق معـه في الهـدف والوسيلة، ويخالفه في تفسير الأمور وتحليل الأحداث، والحكم على الأخلاق، لكن جاد الله بالرغم من هذا كله يجد نفسه في وضع يفرض عليه احترام حسنين وتقديرة والثقة بـه، كيف لا وهو لم يلحظ فيه التواءً قط، أو يمسك عليه تصرفاً شائناً أو غدراً بصديق، أو خروجـاً علـى المبادىء التـي آمن بها . . ووجـد جاد الله نفسه يقول :

ـ « أنت يا حسنين رجل آخر يختلف عن جميع الناس . . أحيانا يخيل إلى أنك هارب من الزمن القديم . . وجئت لعصرنا . . كلما رأيتك تذكرت جيل الصحابة . . »

قال حسنين في شيء من الخوف والقلق:

ـ « استغفر الله . . لا تبالغ . . فليغفر الله لي . . مَن أنا حتى تقـول عني ذلـك ؟؟ أنـا لا أضـاهي مسماراً في حذاء أحد الصالحين . . »

ـ « أنت لا تعرف . . »

ـ«بل أعرف أن الدنيا عند الله لاتساوى جناح بعوضة . . »

ـ « أنت كبير . . »

- « كل من عليها فانٍ . . »

ترقـرت الدموع في عينى حسنين، وحاول أن يكمل الحديث فلم يستـطع، لقـد غص بالـدمـوع، فانتزع نفسه انتزاعاً من مكانه، وهرول مبتعداً، وهو يتمتم : « يا خفي الألطاف، نجنا مما نخاف »

ووثبت إلى ذهن « جاد الله » فكرة، لماذا لا يشترى هدية قيمة - قطعة من الذهب مثلا . . ويذهب لزيارة ابنة حسنين ؟؟ هذا أقل ما يجب

استطاع جاد الله أن يشتري البيت الموعود، ويكتب العقد الابتدائي، أصبح من ذوى الأملاك، إنه يحمل الآن مؤهلاً أفضل من أي مؤهل جامعي، الجامعيون مفلسون ومرتباتهم تنفذ قبل الأسبوع الأول من الشهر، ويتعلقون بمداخل الحافلات والقطارات والترام، وأصبح الزواج والشقة وشراء بدلة جديدة من الصعوبات الكبيره .. البيت قصر صغير .. جاد الله اليوم أصبح باشا صغيرا .. وغدا يكبر، ماذا جرى ؟؟ هل اختل نسق الحياة، أو خربت مصر لمجرد أنه زيف كمية من الأوراق المالية ؟؟ إن الناس ينفقون آلاف الملايين، لكن جملة ما زيفه جاد الله مجرد قطرة في بحر، هذه القطرة أحيت الموات، وبعثت الأمل، وردت إلى إنسان آدميته واعتباره وكرامته .. ولم يبخل جاد الله على أولاده، فقد اشترى لهم الملابس الجديدة، واشترى لميمونة بالذات فستاناً من القطيفة السوداء، كما اشترى سريراً جديداً وبعض الأرائك الجيدة .. وتشجع واشترى تليفزيوناً أحدث دويا في أنحاء عزبة السجانة .. وأتى الناس يهنئونه .. كان يقدم لهم الشربات، ويفسح لهم المكان كي يشاهدوا مباراة كرة القدم، وكان جاد الله في الحقيقة لا يتعصب لأي نادٍ من الأندية الشهيرة، كان يقول ـ إذا ما سئل عن ذلك ـ أنه مع الغالب دائمًا .. إنه يشجع النادي الذي يلعب أفضل في المباراة

حتى لو كان ناديا أجنبيا، سأله ابنه :

- « أنت زملكاوي أم أهلاوي يا بابا »

قال وهو يقهقه :

- « أنا زمهلاوي يا ولـد »

وكعادته دائمًا في فلسفة الأمور أخذ يشرح لضيوفه المشاهدين وجهة نظره بخصوص مباريات كرة القدم، قال :

- « الملعب كالحياة .. يفـوز من يخطط ويراوغ وينتهـز الفرصة .. ولا مانع من أن يلجأ إلى العنف والخشونة عند الضرورة حتى ولـو تسبب ذلـك في كسر خصمه، أو تعريضه للتهلكة .. الخائف المرتبك البطيء لا يمكن أن يسجل هدفاً .. والناسُ تهتف وتصفق للغـالب .. ويقذفون المهزوم بالأحجار ويلاحقونه بأقذع الشتائم .. الكرة كالسياسة .. ولذا نسمع عن الكرة الانجليزية .. والكرة الاسبانية .. والمجرية .. أما الكرة المصرية فليس لها مستوى معروف .. تعلو وتهبط .. الفول الطعمية تثقل على المخ .. يفتقدون روح التعاون .. كل واحد يريد الفوز لنفسه لا لفريقه .. نستطيع أن نتفوق في حمل الأثقال .. أما الكرة فلا .. على الأقل في هذه الأيام .. هذا كلام سمعته عن الكرة من ضابط كان يلعب قديمًا .. »

قال أحد الجالسين :

ـ « يا جاد الله استمتع بالمباراة وكفى . . »

حينما ذهب جاد الله لانتصار بعد أسبوعين من بدء العمل المشترك، أثنت على همته في العمل ، وطمأنته على أن الأمور تسير في مجراها الطبيعي دون أية منغصات أو متاعب، لكنها عتبت عليه لأنه اندفع إلى بعض التصرفات التي تثير التساؤل، وخاصة قيامه بشراء البيت الجديد والملابس الجديدة لأهل بيته، والتلفزيون الذي يزعق صباح مساء، قال في دهشة :

ـ « وكيف عرفت موضوع البيت . . »

ـ « أنا لي جهاز مخابرات . . »

ـ « تتجسسين عليّ . . »

ـ « لا بد من ذلك، إنه مصيرنا ومصيرك . . »

ـ « لم أكن أتصور الأمر على هذه الصورة . . »

صبت له كأساً من الويسكي ، ووضعت أمامه طبقا من المزه، نظر إلى وجهها المثير الذي يصرخ بالفتنة المجنونة، وإلى عينيها اللتين تحملان ألف تعبير وتعبير، ثم أمسك بذراعها العاري كوحش ضارٍ وقال :

- « لن تخدعينى هذه المرة . . »

قالت وهي تغم :

- « لا تنسى أنني أنا الرئيسة . . وأنا أقرر . . »

قال محذراً بسبابته:

- « إلا في هذه الأمور . . »

قالت بثقة :

- « بل في كل شيء . . الرئاسة لا تتجزأ . . »

هتف ذليلاً :

- « وأنا عبدك المطيع . . »

- « أيها الوحش الماكر . . . »

كانت كلمة «الوحش» تثير فيه أبشع الغرائز وأحطها، وتهيمن على كيانه كله، فيتحول إلى حيوان، إنها مفتاح شخصيته.

والمقولة التي تحرك زناد مشاعره وعنفه الروحي والجسدي، فهبّ واقفا في تحفـز، ورآهـا تنفلت إلى الداخل، فقذف في فمه بما تبقى في الزجاجة من خمر، ثم جرى خلفها، وعندما وصل غرفة النوم، تسمر لحظات أمام المشهد المثير وهي ترتمي على الفراش الوردي، والنور الأحمر يشعل المكان بخيالات نارية . .

وجدت صعوبة كبيرة في أن توقظه قبيل الفجر، كان يغط في نوم عميق، لكنها صبت الماء البارد على رأسه ووجهه بغزارة حتى انتفض جالساً، وصرخ :

- « ماذا ؟؟ »

- « لا بد أن ترحل الآن . . »

- «بل سأنام حتى الصبح . . »

- « مستحيل . . ولا بد أن تذهب إلى عملك في الموعد المحدد . . »

- « لم يعد يهمني العمل . . »

- « هذا أكبر خطأ ترتكبه في حياتك . . »

- « حياتي كلها . . أخطاء . . فماذا سيحدث ؟؟ »

- « معنى ذلك أنك تخرق الاتفاق الذي تعاهدنا على تنفيذه..»

لم يجد مناصاً من أن ينصاع لأمرها الصارم، ارتدى ملابسه في تكاسل، كانت رأسه ثقيلة تتطوح دون إرادة، وكانت خُطاه المضطربة تميل به يمينا ويساراً، هتف :

- « إنه إصرار غريب منك . . كيف أصل وأنا على هذه الحالة . .»

ربتت على كتفه في ودّ وهي تبتسم وقالت :

- « لقد أعددت لك كل شيء . . »

- « ماذا تعنين ؟؟ »

- « التاكسي ينتظر بالباب . . »

- « كيف ؟؟

- « لا تسأل . . لقد أعددت كل شيء . . »

جلس منـزوياً في المقعد الخلفي، لم يستطع أن يتبين وجه السائق الذى لف رأسه ووجهه بشال صوفي سميك، بحيث لا تظهر إلا عيناه الحادتان، قال جاد الله وهو يغالب النعاس، وتخرج الكلمات النافرة . . منفردة :

- « عزبة السجانة . . »

رد السائق باقتضاب، ودون أن يلتفت إليه :

- « أعــرف . . »

توقف السائق قبالة منزله، ثم أسرع بفتح باب السيارة، وجذب جاد الله بسرعـة وسـاعده في الوصول إلى الباب، ثم دق له الجرس،

وانصرف مسرعاً، تلقفت « ميمونة » زوجها المتهالك وهي تنظر إليه في دهشة قائلة :

- « أين كنت ؟؟ »

- « أوه . . هذا السؤال السخيف لا أحب أن أسمعه . . »

- « لكنك في . . »

مد يده وسد فمها قائلاً :

- « كنت في الحضرة . . عنـد الشيخ البحـيري . . مع حسنين . . هل استرحت ؟؟ »

نظرت إليه في شك . . وسـار في الممر الخافت الضوء . . وما أن وصل إلى سريره حتى ارتمى عليه بكامل ملابسه وحذائه . . قال ميمونة :

- « لا أصدقك . . »

- « إلى جهنم وبئس القرار . . دعيني أنم . . »



كان السجن يموج بحركة غريبة في الصباح، وانتصب جاد الله كعمود من الخشب وسط الطابور الطويل للسجانة، لكنه لاحظ وجود المدير نفسه والضباط، وبعض كبار رجال المصلحة:

-« ماذا يجري يا حسنين؟»

-« أصمت . . »

-« يجب أن نعلم . . »

- « وصلت إخبارية للمصلحة عن عمليات تهريب للمخدرات إلى السجن، فأحضروا عدداً من الكلاب البوليسية . . »

آفاق جاد الله من النعاس الذي يغالبه، وتنبهت كل خلية عصبية فيه، وأخذ يمسح المكان بعيني صقر، وقال حسنين في خوف:

- « احذر يا جاد الله . . المسألة جد . . »

تنهد جاد الله في ارتياح وقال :

- « اطمئن . . »

- « ولا حتى رسائل مهربة . . »

-« ولا رسائل . . أتظنني أفعل شيئاً كهذا؟؟»

نظر إليه حسنين في ريبة :

- « ربنا يستر . . »

وجاءت الكلاب لتتشمم السجانة، وأطالت الوقوف قليلاً لدى جاد الله حتى جف ريقه « يا إلهي .. أيمكن أن أكون قد نسيت قطعة أفيون أو حشيشة في جيبي ؟؟ مستحيل .. أنا واثق .. إلا إذا كانت الكلاب تشم ما يسري في الدم ..» وتقاطر العرق على وجهه، وبدا عليه مزيد من الشحوب والارتباك، وتقدم المدير نحوه :

- « لماذا تخاف هكذا .. »

- « أنا طبيعي يا باشا أخاف من الكلاب .. »

صاح المدير بحزم :

- « فتشوا هذا العسكري بدقة .. »

وأخذوا يخلعون ملابس جاد الله قطعة قطعة، حتى بقي السروال القصير الذي يستر عورته، ويحثوا في الجيوب والبطانات والثنيات، بل أمروه بأن يتبرز في مكان منعزل تحت إشراف أحد الضباط مخافة أن يكون قد أخفى شيئاً في الجزء الأخير من أمعائه كما يفعل بعض المسجونين .. ومرّ الأمر بسلام .. لكنه استشعر المهانة القاتلة، وأخذ يرتدي ملابسه في عصبية ظاهرة، والغضب يرتسم على وجهه، وكان يتمتم : - « أهذه هي المكافأة التي نأخذها من المصلحة بعد ذلك العمر الطويل في الخدمة ؟؟ مأساة !! طيب يا زمن !! »

صاح المدير في حدة « ماذا تقول ؟؟ »

- « أبداً يا باشا . . »

- « امش إلى العنبر . . »

حينما وصل إلى العنبر كان في غاية من الإعياء لا مثيل لها، وشعر أنه في مسيس الحاجة لأن يبكي، وأن يضع رأسه على كتف حانية كيما يشعر بالاطمئنان والراحة، وألقى بجسده المنهك على المقعد الخشبي العتيق الرصاصي اللون، الذي يشبه في لونه حدقات أعين الموتى، ونظر إلى السياج الحديدي أمامه، وجال برأسه خاطر عابر حول أولئك المسجونين الذين يصيبهم اليأس، ويفقدون القدرة على الصبر، فيقذفون بأنفسهم إلى الساحة الأرضية الصلبة الباردة فيموتون . . لكنه سرعان ما استبعد تلك الخاطرة السوداء، لسبب بسيط، وهو أنه يكره الموت، ويحب الحياة رغم مرارتها، وهو الآن على أبواب السعادة التي حلم بها طويلاً . . هل نسي أنه أصبح من ذوي الأملاك ؟؟ والحياة لا بد أن يكون فيها منغصات . . لكن كيف تصادف في هذا الأسبوع بالذات أن يتكاسل عن إحضار « التموين » لمحفوظ ؟؟ وفي هذا الأسبوع بالذات تأتي الكلاب . . كلاب يقودها كلاب . . كيف حدث ذلك ؟؟ أليست مصادفة عجيبة تدعو للتساؤل ؟؟ أيمكن أن يكون ذلك إنذاراً من الله؟؟ لو صح هذا الظن فمعناه أن الله كما يقول حسنين حليم . . رحيم . . ولا يغلق بابه أبداً . . ماذا لو أمسكوا به اليوم والمخدرات في

جيبه ؟؟يا للمصيبة!! إنـه يكاد يـجن لمجرد التفكير فـي مثل ذلك الأمـر، كان حسنين يـقف إلى جواره فـي الطابور هادىء البال، واثقـا من طهـره وبراءته، وكان يـردد أسماء الله الحسنى . . كان يسمعـه على الـرغم مما داهمـه اليوم مـن هموم . . لعلها بركـات حسنـين وشيخـه البحـيري . . أو لعل اللـه أنقذه بسبب ميمونة المسكينـة، وشـادية البلهـاء، والأطفال الأبرياء . . لقد كان فـي مستنقع الإثم أمس . . وغرق في الخطايا حتى أذنيه . . ولو أمسكوا به متلبساً اليوم لكان ذلك أقـل عقـاب يستحقه . . . وجاءه صـوت محفوظ ينادي فجـأة :

ـ « افتح لي الباب يا باشسجان جاد الله . . »

ـ « اسكت الله يخرب بيتك . . الحكومة كلها هنا . . »

وأطلت الرؤوس من شرفات الزنازين، المسجونون يسألون عما يجري وعن سبب عدم فتـح الأبـواب حتى الآن، ووقف جاد الله أمام مقعده الخشبي وقال:

ـ « اخرسوا جميعا . . مدير المصلحة هنا . . والكلاب . . »

وساد اللغط، وأدرك المسجونون أن التفتيش على قدم وساق، وأن الكلاب لا تجيء إلا للبحث عن المخدرات،وتعالت « كلمات السر » في صوت خفيض لكنه واضح، وأغضى جاد الله عما يجري ، فهو يفهم أن المسجونين يحذرون بعضهم البعض بخصوص ما لديهم من

ممنـوعات، وضرورة التخلص منها، فمن يدري قد ينقض عليهم المفتشون في أية لحظة . . وأخذ جاد الله يروح ويجيء عبر الصمت الـذي ران على العنبر بعد ذلك، وكان لوقع حذائه الثقيل صدى يتردد في أرجاء العنبر، وظل في تجواله ذاك حتى أتى إلى غرفة محفوظ ثم توقف قليلاً، ونظر إلى الشرفة الصغيرة التى أطل منها محفوظ:

- « محفوظ . . انتبه جيدا . . حذار أن يكون معك شيء مخالف . . »

قال محفوظ هامساً :

-« أطمئن . . القحط أصاب السجن منذ أكثر من أسبوع . . »

متأكد يا محفوظ ؟؟ »

- « ألف في المائة . . »

- « الحمد لله . . »

وعاد جاد الله يدق الأرض بحذائه الثقيل . . إنه أشد خوفاً ورعبا من المسجـونـين . . مع أنـه السجان . . فمن إذن لا يخاف ؟؟ تساوى المسجون والسجان في الأحزان، حتى مدير السجن الآن، وهـو على رأس الجهاز الإداري يرتعد، فلو أثبتوا مخالفة في سجنه لرموه بالتقصير والإهمال، ولتعرض للتأنيب بل والتحقيق . . يبدو أن المسجون هو الأقل خوفاً . . فماذا به حتى لو أمسكوا به متلبساً ؟؟

وأتى حسنين يمشي في اطمئنان . . قال له جاد الله :

ـ « الكبراء كلهم هنا اليوم . . »

ـ « لا كبير إلا الله يا جاد الله . . »

ـ « لكننا نخاف منهم أكثر مما نخاف الله . . »

ـ « لأننا ضعاف الإيمان . . كلامك كالخنجر . . ولأن الله لا يظلم . . وعدالته تبعث الاطمئنان في النفس . . وليكن ما يكون . . . إنهم لا يملكون من أمر نفوسهم شيئاً . . »

وسادت فترة صمت وتفكر قال حسنين بعدها :

ـ « إنهم يتأكدون من تنفيذ اللوائح والقوانين، ولهم الحق . . »

ـ « ألا تعتقد أنهم أول من يكسر القوانين ؟؟ إنهم أصحابها . . »

ـ « عليك بنفسك يا جاد الله . . أقول لك . . افهم . . »

ـ « إننا نتعلم منهم يا حسنين كل شيء . . »

ـ « فلماذا إذن جاء الأنبياء والرسل ؟؟ »

ـ « جاؤوا . . جاؤوا . . أعني . . »

قال حسنين مغمض العينين، ورأسه إلى أعلى، وسبابته تشير إلى السماء:

ـ « لنؤمن بأن الله واحد . . »

وعاد جاد الله ليجلس على مقعده، ومضى حسنين إلى حيث يعمـل، كان جاد الله يفكـر فيما يقـوله حسنين، إنها مجرد كلمات واضحة بسيطة، لكنها كبيرة . . العالم من حوله يطفح بكل رذيلة، والليل يخفي تحت ستـائره السـود آلاف الجرائم، وصورة السيد والعبيد لم تتغير منذ آلاف السنين، برغم تغير المسميات والهيئات، الـوزير عبـد للسلطان . . والمدير في خدمة الوزير . . وتتسلسل العبودية من أعلى إلى أسفل . . حتى السلطان عبد لأطماعه مهما تشدق بالخطب الرنانة والمبادىء الكبيرة . . العالم كله سوق للرقيق يا حسنين . . وأنت لا تفهم ذلك يا حسنين . . لسبب بسيط . . وهو أنك تعيش في عالم آخر غير عالمنا . . عالم البحيري وتلاميذه . . لو كنت معنا على هذه الأرض يا حسنين لاستطعت أن تفهم كيف تشتعل جهنم، ويحترق المعذبون والمستضعفون والجياع . . في قصر الباشا إما أن تكون حشرة . . أو ذئبا . . أو ثعلبا . . أو حصانا . . لم يكن قصراً ولكنه مزرعة للحيوانات ذات الوجوه البشرية . . وهل تختلف هذه الصورة القديمة في ذلك القصر . . عما يحدث في قصور اليوم يا حسـنين ؟؟ لكي تكـون مواطنـاً صالحاً لا بد أن تتصف بالغفلة . . لهذا دعني يا حسنين . . دعني لكي أعيش . . لست أنا الشاذ . . الشاذ أنت . . ولا تسألني عن النهاية، فأنا لا أهتم بها الحياة قصيرة وستنتهي حتما . . فلماذا تأنيب الضمير والعذاب؟؟»

وجاءه صوت الصول من أسفل:

ـ « افتحوا الأبواب . . »

وكان أول باب يفتحه جاد الله، باب محفوظ . . الذي قال باسمًا :

ـ « يا صبـاح الفـل . . والـورد . . والياسمين يا أحسن جاويش في الدنيا . . »

- ١١ -

ذهب جاد الله إلى قريته البعيدة بعد غياب سنين طويلة حاملاً معه بعض الهدايا لأهله وأهل زوجه، وهي لا تخرج عن الأقمشة والفـواكه والحلوى، وهو لا يسافر إلى تلك القرية إلا نادراً جدا، وقضى يومين يتعرف على الناس، وعلى الذين كبروا وتزوجوا، وأخذ يسـأل عن أحـوال القـرية بصفة عامة، كيف يعيشون، وعلم أن المحصـول في هذا العام قد تعرض لآفات عدة، وأن العاملين في الجمعيات التعاونية ينهبون ويسرقون، ولا طائل من وراء الشكاوى التي يبعثون بها الى المسؤولين، لأن المتهمين دائمًا يفلتون، وماذا تريد الحكـومة غير الحسابات المضبوطة التي تمت مراجعتها، والحصص التمـوينية التي تسلم إلى أصحـابهـا، أمـا الخصومات والرشاوى والاستقـطاعات فليست لها في العادة سجلات، ومعظم الفلاحين موصـومون بالأمية، إنهم يرغمون على التسليم والإذعان ما دامت تلك هى القـوانـين واللوائـح كما يؤكـد رجـال الجمعية، والعمدة متحالف مع الجمعية، والجمعية جزء من « الاتحاد الاشتراكي »، والاتحاد الاشتراكي ينظر الى « المخلصين » نظرة خاصة، أما ما هي مواصفات المخلصين فذلك ما لا يعرف أحد، والفلاحون بالتأكيد لا يدخلون في نطاق هؤلاء، لأنهم منكبون على أرضهم ومواشيهم وزراعتهم، وليس لهم أي نشاط سياسي، وأصبح همُّ كل واحد

منهم أن يبحث له عن مخرج آخر إلى جوار الزراعة، ولا مانع لديهم من أن يسافروا إلى آخر الدنيا كي يحسنوا أوضاعهم المالية، خلاصة الأمر كما قيل لجاد الله: إن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، وإن الشبان الذين سافروا إلى حرب اليمن ثم عادوا أحضروا معهم قدراً لا بأس به من المال، لكنهم على أية حال قلة، والذين سافروا للخدمة في بعض البلدان العربية هم أيضا تبدو عليهم علامات الانتعاش والتيسر، وسبحان مقسم الأرزاق.

قال جاد الله لأحد الخفراء الذين يعرفهم :

- « وكيف حال الأسعار بالنسبة للأراضي الزراعية ؟ »

- « كساد في كساد . . فلم تعد تنتج ما يكفي . . »

- « كم يساوي الفدان إذن ؟؟ »

- « من خمسمائة إلى ستمائة جنيه . . حسب المكان . . »

وتشعب الحديث، وعلم جاد الله أن أحد أثرياء القرية القدامى، قد رحل نهائيا عنها، وأنه يريد أن يتخلص من أرضه بالبيع، بشرط إرضاء المزارعين، وفهم جاد الله أن المستأجرين لا يتركون الأرض للمالك بسهولة حسب قانون الإصلاح الزراعي، بل الأصح أنه لا تستطيع قوة أن تخرجهم منها، ولهذا فإن من يشتري الأرض لا بد وأن يدفع نسبة من الثمن للمستأجر حتى يخليها

لمالكهـا الجديد، وهو أمر يتفق عليه بين الثلاثة المالك والمستأجر والمشتري، ولم يغادر جاد الله البلد إلا بعد أن دفع العربون لشراء خمسة أفدنه دفعة واحدة، وبيتاً صغيراً متهدماً على مشارفها، وعاد والعقد الابتدائي في جيبه، وبالطبع فقد حرص على أن يقوم بزراعة الأرض لحسابه، ولا يؤجرها لأحد مطلقا.

عاد جاد الله من رحلته الريفية الموفقة سعيداً منتعشاً، وكان يجلس في قطار العودة وهو لا يشعر بما حوله من ضجيج، كان سابحاً في أحلامه الوردية، إنه يصعد سلم المجد بسرعة مذهلة، لكن يجب ألا ينسى أن أمامه مسيرة طويلة شاقة، فالبيت الذي اشتراه يجب أن يدفع المبلغ المتبقي عليه وهو في حدود ألف وخمسمائة جنيه، والأرض لا بد وأن يدفع بعد العربون أو المقدم ألفين آخرين، بالإضافة إلى السمسرة ورسوم التسجيل ومستحقات المستأجرين، وهذا كله يعني المزيد من العمل والأنتاج ومـزيد من الحرص أيضا وإلا فشلت كل المشاريـع، وضاع كل شيء هباء، لكن الأيام تمر بطيئة مزعجة مملة، والست انتصـار ترفض بشـدة أي تغيير في حجم العمل والإنتاج والتوزيع . . . إن لهفته المجنونة تنطلق به كفرس الرهان، ورزانة انتصار تجعله يسير الهوينا كحمار جائع نحيل . .

فلماذا لا يذهب إليها ويصارحها بكل شيء؟إنها تحبه وتبش لمقدمه كلما جاء . . وتغدق عليه من المتعة والترويح ما لم يذقه في حياته

الجرداء المقفرة . . جعلته يهيم في عوالم سخية فريدة هي النعيم بعينه، وعلى الرغم من حزمها وصرامتها في العمل، إلا أنها - مهما كان الأمر - امرأة . . آه لو عرف كيف يقنعها!! وآه لو عرف نقطة الضعف فيها!! إن لكل إنسان مدخلاً خاصاً يفضي إلى عوالمه الخفية، ويبين عن اتجاهاته ومصادر إسعاده وشقائه . . ليته يعرف . . ووثبت إلى ذهنه فكرة . . لماذا لا يذهب إليها الليلة قبل أن يذهب إلى بيته ؟؟ لم يزل أمامه يوم باق في إجازته، ولعل مصارحتها بكل شيء تجعل قلبها الطيب يميل إلى رأيه . . أنعشته الفكرة المباغتة، وهزت كيانه، وشعر برائحتها المميزة تلامس خياشيمه . . وأغمض عينيه وهو جالس على مقعده الخشبي في القطار، ورمى برأسه على الحاجز الذي خلفه، واندمج في أحلامه . . تُرى فيما تختلف انتصار عن ميمونة؟؟ ميمونة تذكره بالرضوخ والملل والاستسلام حتى أنه في بعض الأحيان يهم بأن يخنقها، وانتصار تغرقه في أمواج سحرية من النشوة والاستمتاع اللامحدود، إنه يرتشف كلماتها الحلوة ارتشافاً، وينظر إلى قسماتها وعينيها في وله وذوبان، ويتمنى أن يأكلها أكلاً، واقسى اللحظات على نفسه هي لحظات الفراق . . وتمتم جاد الله « يا قلبي اللعين . . أنا لا أفهمك أشعل سيجارة، ثم أخذ يرمق الحقول التي تجري إلى الوراء عبر النافذة . . ويعود ليحلم بقصر في الريف . . في عزبة خضراء تكتظ

بالحيوانات والكلاب والفلاحين . . وهو واقف بينهم بعصا معوجة من الأبنوس الأسود . . يأمر وينهي . . ويصفع ويركل . . ويأكل ما لذ وطاب من الحمام والبط والدجاج السمين . . وفي وقت الأصيل يركب جواده الرمادي اللون الذي يشبه إلى حد كبير جواد الباشا . . وينطلق يسابق الريح على شاطىء النهر . . وأطفال الفلاحين يفرون من أمامه مذعورين . . وبالطبع سيشتري سيارة نصف عمر لكنها أنيقة . . وعندما يصل إلى المركز، فسوف يهب المأمور لاستقباله في حرارة، وسيقول له: « أهلا جاد الله بك » . . نعم سوف يضفي عليه لقب « بك » على الرغم من أن الألقاب قد ألغيت . . وسيتهافت الشبان على الزواج من شادية ابنته . . وستبدو دون شك رائعة فاتنة . . أليست بنت جاد الله بك ؟؟ وسيفعل المستحيل ليدخل أولاده الجامعة بشرط أن يكون أحدهم في كلية الشرطة . . آه . . ولن أنسى حسنين . . أبدا لن أنساه . . فإن كان قد مات فسأقيم له ضريحاً في مسقط رأسه حتى يزوره الفلاحون، ويتبركون به، ويتسلون بإقامة احتفالات الموالد له، وسيكون مقصد الزائرين والدراويش من مختلف الأنحاء . . أما إذا ظل حسنين حيا، فسوف أتجنب لقاءه . . لأنه يعرفني جيدا، ويكاد يقرأ ما بداخلي، ودائمًا أشعر أمامه أنني قزم . . ضئيل، وهو عملاق له هيبة . . ومع ذلك فسأرسل إليه بعض الأموال والهدايا . . لقد انبهرت

ابنته عندما قدمت لها « البروش الذهبي » بعد زواجها . . وانبهر حسنين هو الآخر على الرغم من أنه عاتبني بعنف، وكان مصراً على اعادته . . وأنا أفهم كيف كان يفكر . . إنه يعتقد أنه من مال حرام . . لكن كيف يجزم بذلـك؟؟ وجاد الله سوف يكون له مستقبل سياسي باهر . .

بالتأكيد لسبب بسيط وهو أنه « وحش السجون الحربية » الذى أدب المـارقين، وسفك دماء أعداء الحكومة من شيوعيين وإخوان ووفـديين وبـاشـاوات وغيرهم، فهل ستنسى له الحكومة هذا الفضل؟؟ فما عليه إلا أن ينضم للاتحاد الاشتراكي . . ثم يصبح أمينا له . . ثم عضواً في المركز . . وبعد المركز المحافظة . . ويظل يصعـد سلم المجـد حتى يصبـح عضـواً في مجلس الأمـة . . والانتخابات كلها « كوسة » . . بالمال تستطيع أن تشتري كل شيء . . قاعدة معروفة . . إذا عجزت عن شراء الأصوات، فبشيء من السخـاء أستـطيع أن أشتري القائمين على التصويت والفرز وهذا أفضل وأيسر وأسرع..والذي يتعرض لي من المنافسين أستطيع أن....

ونـام جاد الله . . نام برغم الضجيج والـزحام . . وانبعث غطيطه بصورة منفردة آذت مشاعر الركاب، وبد ذلك واضحاً على وجوههم وإشاراتهم، لكن أحدا لم يجرؤ على إيقاظه . . وهزوه برفق عنـدما توقف القطار في المحطة الأخيرة . . وشعر أن نصف

الساعة التي نامها قد بعثت فيه الهمة والنشاط، ودس يده في جيبه ليطمئن على « عقد الأرض »، وعلى ما معه من مال . . كان يسمع أذان العشاء يتردد في مسجد كبير، وأخذ ينتقل هنا وهناك ليلتقط «تاكسي » فيحقق له ما يريد.. الفرق شاسع بين التاكسي والقطار.. الزحام يكاد يسحقه، وأنفاس المسافرين تكاد تخنقه، وبكاء الأطفال يثير أعصابه، ونداء الباعة يخنقه، لم يعد يطيق الناس، إنه أصبح يعشق الهدوء والراحة الغوص في ذاته، ليستخرج الأفكار، ويرتب الخطط، وينسق الأحلام الوردية التي تسعده أيّما سعادة . .

ودخل عليها مبتسمًا، لكنها فغرت فاها دهشة :

- « ما الذي أتى بك الآن ؟؟ »

- « وهل بيننا مواعيد ؟؟»

- « تعلم أن كل شيء يجب أن يكون مرتبا . . »

قال وهو يغلق الباب، ويخطو نحو مقعده الأثير في الصالة الصغيرة :

- « لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي . . إني آتي إليك مشدوداً على الرغم مني . . أهو التنويم المغنطيسي؟؟ لا أدري . . »

قالت وهي تتصنع الغضب :

- « لم يبقى سوى أن تقول إني قد سحرت لك . . »

- « بالضبط . . عيناك السحر كله . . »

نظرت إليه بجدية :

ـ « اختصر .. أنا على موعد بعد ساعة .. »

هتف في غيرة وهو يضغط على أسنانه :

ـ « أهناك غيري ؟؟»

ـ « أتظن أنه ليس على الحجر غيرك ؟؟»

ـ « بالتأكيد ...»

ـ « مغرور يا مسكين .. »

ـ « لا تعذبيني يا انتصار .. »

قالت وهي تطوق عنقه في ود :

ـ « يا مجنون .. أنت الوحيد وكلهم « ركش ..»

ـ « سلمت لي .. »

هبَّت واقفة ، وفكرت برهة ثم قالت :

ـ « إن لدي عملاً ..

ـ « أين ؟؟»

ـ « لا تسأل .. »

خطا نحوها ، وأمسك بكتفيها وقال :

ـ « وأنا لن أغادر هذا المكان ظامئا محروماً ..»

أخذت تروح وتجيء، وتضرب بكفها على جبهتها

- « تعلم يا جاد الله أن مسؤوليتي كبيرة . . »

انقض عليها كنمر، واحتواها بين ذراعيه وقال:

- « لن تفلتي . . »

نطحته برأسها وهي مستغرقة في الضحك، ففك حصاره ووقف ينظر إليها مأخوذاً، وقال :

- « لو أن عقلك هذا في بلد آخر غير بلدنا لأصبحت رئيسة للوزراء، أو على الأقل وزيرة . . في الهند وإسرائيل المرأة الممتازة تصبح رئيسة للوزراء. .أما المرأة الممتازة عندنا تصبح رئيسة عصابة. .

عادت تقهقه :

- « أيها المجنون . . »

- « لا أقول إلا الصدق . . »

- « لكني لا أحمل مؤهلات يا جاد الله . . فقط الابتدائية . . »

عاد ينظر إليها في انبهار، ثم تحسس شعرها، وكتفيها، واقترب من صدرها وهو يقول :

- « هذه أروع مؤهلات رأيتها في حياتي . . »

دفعته في صدره بعنف وشدة لم يغضب لها وقالت :

- « احتشم يا ملعون . . »

ثم ألقت بجسدها فوق مقعد قريب، وشردت قليلاً، وبدا على نظراتها غير قليل من التأثر والحزن الدفين :

-« حين كنت في الخامسة عشرة سقطت ضحية العبث . . كان فتى وسيما أشقر الشعر ابن جارة صديقة أمي . . المهم رحلوا عن حينا . . وتركت المدرسة . .وذهبت لأتعلم الخياطة . . لم يكن لدي صبر . . كنت أريد أن ألعب ألهو وأذهب إلى السينما والمتنزهات . . كان أبي قد مات . . فكرت أن أكون ممثلة . . لعبت بعض أدوار «الكورس » . . ولم أنطق بكلمة واحدة في أي فيلم من الأفلام . . ووراء الكواليس أعطوني الوعود الكثيرة . . ودفعت الثمن مراراً وتكراراً . . لكنهم خدعوني . . لهذا أصبحت أحتقر الفن . . وأكره الذهاب إلى السينما . . لم أعرف الفن إلا من الجانب الآخر . . جانب الدعارة . . ولم أعرف أبداً الوجه الآخر، عندما أرى صور النجوم، وقصص حبهم وغرامهم أضحك . . لأني أعرف الحقيقة . . وفكرت أن أتاجر في السمك . . للأسف الحصص تعطى لمن يدفع أكثر . . وإذا اعتمدت على التسويق بنفسك . . أمسكوا بك لمخالفة التسعير . . فكرت في السرقة وجدتها مهنة حقيرة لا جهد يذكر فيها . . قلت أفتح دكاناً للبقالة . . لكن أين الخلو . . وحصص التموين ؟؟ وجدت كل شيء معقداً . . أتعرف من الذي أخذ بيدي وأنقذني من كل تلك العقد ؟؟

قال جاد الله مشدوداً :

- « مـــن ؟؟ »

- « محفوظ . . وجدت الأمر سهلاً . . وهكذا التقينا يا جاد الله . »

- « لكن ما مناسبة هذا الكلام ؟؟ »

- « أحيانا أشعر بأني سأنفجر . . ولا بد أن أنفث عن نفسي . . كان محفوظ يخفف عني . . لكنه ذهب . . ولكن أتيت أنت . . أنت مثل محفوظ تماماً . . »

نظرت إلى ساعتها وقالت :

- « سوف أسمح لك بالانتظار حتى أعود . . لكن حذار . . لا تفتـح البـاب لأحـد . . ولا يصدر عنك صوت . . لن تستغرق مهمتي أكثر من ساعة . . التاكسي لا بد وقد حضر الآن . . »

قال جاد الله :

- « إلى أين ؟؟ أريد أن أعرف . . »

- « من الأفضل ألا تعرف . . اطمئن . . »

- « أمرك يا ست الكل . . »

- « يا حلو ليلتـك فل . . »

وما أن خرجت حتى خلع ملابسه، وذهب إلى دورة المياه، ثم عاد لينفث دخان سيجارة في هدوء وانتشاء، وهو يحاول أن ينسى هواجسه وأوهامه، بل ينسى الدنيا كلها . . لكنه عاد يتمتم :

ـ « كل النـاس مآسي وتـاريخ أسود . . إلا أنت يا حسنين أنت وزوجتي ميمونة . . ومن الناس مَنْ تأتي مأساته في البداية، ومنهم من تأتي البلوى إليه في النهاية . . الباشا ولد في فمه ملعقة من ذهب . . ثم جاءت الثورة وأطاحت بكل شيء . . وأنا على النقيض منه تمامـاً . . ترى أكان يمكن أن أرضخ للمأساة في البداية . . وفي النهاية ؟؟»

وهـرول جاد الله إلى الداخل باحثا عن زجاجة ويسكي، وجلس وحده يشرب، وأخذ يدندن بعض الأغنيات، ثم توقف عن الغناء فجأة وقال:

ـ« سيأتي إلى الباشا باحثاً عن عمل . . لا . . لا الباشا مات . . قد يأتي أحد أبنائه أو أحفاده . . سأقول له ليس عندي سوى « اسـطبل الخيل ». . فإن كان لديك خبرة كافية فلا مانع من أن أعينك فيه بمرتب جيد . . ها . . ها من يدرى قد لا توافق انتصار على ذلك . . ستكون سيدة القصر لا محالة . . أما ميمونة . . آه ميمونة . . هل أطلقها . . حرام . . سوف تبقى . . أنا أعرفها . . لا تعرف التمرد أو المشاكل . . . لا تخافي يا ميمونة . . . لن أقصر

في حقـك أبدا . . لكن المشكلة يا ميمونة أن انتصار متزوجة من محفـوظ . . . لا بد من البحث عن حل لمحفوظ إنه كالعظمة في الزور . . . لم أعد أطيقه . . . لماذا لا يموت ويريحني؟ يا ويلي إن خرج وأخذ انتصار . . . إذا أفرج عن محفوظ فسوف يتدمر كل شيء . . . محفوظ خطر . . . ولا بد أن يبقى في السجن على الأقل . . . أو تطلب انتصـار منـه الـطلاق . . . محفوظ سبب سعادتي . . . وشقـائي أيضا . . . والتخلص من الشقاء يقتضي التخلص منه، بأي وسيلة . . . يسقط محفـوظ . . . يسقط محفـوظ . . . يسقط الخونة . . . الموت للخونة . . .

كان يهتف بصـوت مرتفـع ، عندما دخلت انتصار وأغلقت الباب على الفور، وأسرعت إليه :

-« ماذا فعلت أيها المجنون . . أغلق فمك وإلا ضعنا . . »

وأسرعت بحمل الكؤوس والزجاجة الفارغة وبقايا الطعام ، عادت إليه تجره جراً إلى غرفة النوم ، وهي تسد فمه . .

قال :

-« إذن اهتفي معي يسقط محفوظ . . »

-« يسقط محفوظ . . »

قولي أيضا:

ـ« يسقط المدير وكلابه »

ـ« يسقط المدير وكلابه »

ـ« تسقط الحكومة . . »

ـ« يا للمصيبة !! اصمت . . »

ـ« يسقط حسنين . . »

ـ« يسقط حسنين . . »

ـ« حسنين والشيخ البحيري . . »

ـ« حسنين والشيخ بحيري . . من بحيري هذا ؟؟ أرجوك يا جاد الله . . لا تفضحنا . . لا يعرفنا أحد هنا، ولا صلة لنا بالجيران . . »

ـ« إذن تعالى هنا . . »

ـ« جئـــت . . . »

بعد ربع ساعة كان يغط كثور ذبيح ، وأخذت انتصار تفتش جيوبه، فوجدت عقد الأرض وقليلاً من الأوراق المالية الصحيحة، واطمأن قلبها حينما تأكدت أنه لا يوجد معه أية ورقة زائفة . . وقررت أن تدعه ينام الليلة بكاملها . .

في الصباح قالت بغضب :

ـ« لقد تجاوزت الحدود عندما سكرت . . »

ـ« لم أدر ماذا حدث . . »

ـ« حدثت كوارث لولا لطف الله . . »

ـ« كنت أريد أن أنسى . . »

ـ« لكنك تذكرت . . وطفحت بالماضي وبالمختبىء كله . . »

ـ« المهم أننى لم أشعر بشيء . . »

ـ« لو فعلتها مرة أخرى، فلن تراني أبداً . . »

ألقى باللقمة من يده، وهتف في رعب :

ـ« كنت أنتحر . . حياتي بدونك لا معنى لها . . لكن أعدك . . »

- ١٢ -

أفـاق حسنين من نومه على صوت المؤذن يقول « سبحان من أمات الليل وأحيا النهار »، ومسح على وجهه وهو يتمتم « أصبحنا وأصبح الملك لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم » ثم نادى على إمرأته . . أم محمود كي تستعد للصلاة، وكان في عجلة من أمره، إذ لا بد أن يسرع بالذهاب إلى المسجد حتى يلحق بالجماعة الأولى، لقد قضى أكثر من عشرين عاماً وهو يحافظ على صلاة الفجر، وكان يوقظ زوجه وفريدة ومحمود، إنه يتذكر كيف أن فريدة الصغيرة كانت تقف منذ الخامسة من عمرها، وترتدي زيها الإسلامي، وتقف كالملاك الطاهر تؤدي الصلاة، ويتذكر أخاها محمود كذلك. وظل العهدُ بهم جميعا حتى اليوم . . إنه أمر يثلج فؤاده، بل يراه حسنين أنه أثمن من الدنيا وما فيها . . وبعد الصلاة يتناولون طعام الفطور، ثم يذهب كل لحال سبيله

عندما عاد حسنين من الصلاة قال :

-« إيه . . . ستسافر فريدة وزوجها اليوم إلى ليبيا . . أشعر أن قلبي معها في الغربة . . . »

بكت الزوجة في صمت، ولاحظ حسنين قطرات الدمع الفضية تتساقط من عينيها في لمحة خاطفة، على الرغم من أنها كانت تحاول إخفاءها . .

قال حسنين والدموع في عينيه هو الآخر :

-« لِمَ تبكين؟؟ يجب أن تزغردي . . »

نظرت إلى الدموع في عينيه قائلة :

-« اسأل نفسك . . »

حاول أن يقلد النساء في الزغردة وهو يقول :

-« انظرى . . سوف أزغرد . . لو لو لو. . »

وأخذ يضحك ويقهقه والدموع في عينيه، عندئذ لم تستطيع الزوجة أن تكتم شهقـات البكاء، فتركها حسنين كيما تنفث عن عواطفها الجياشـة، وأخـذ يشرب الشـاي الساخن بينما تناول من آن لآخر قضمة من ساندويش الفول، ويحاول أن يبتلعها في صعوبة.وقالت زوجته وقد أشرق وجهها بالفرحة المباغته:

-« سوف تصبح جَداً بإذن الله يا حسنين . . نسيت أن أخبرك أن فريده حامل . .

بدت السعادة والارتياح على وجهه وتمتم:

-« الحمد لله . . سوف يصبح لنا أحفاد . . طالما دعوت الله أن يرزقنا بالذرية الصالحة . . لقد ذهب العمر يا أم محمود . . »

-« أطال الله عمرك . . . ما زلت شاباً. . »

ابتسم في نقاء وحب وقال :

-« أتشهدين بذلك؟؟؟»

-« وأبصم بالعشرة . . »

وعاد يقهقه ويقول:

-« أيتها العجوز الماكرة . . »

اقتربت منه ثم وقفت أمامه بوجهها الصبوح المؤمن وقالت :

-« أتراني عجوزاً؟؟ هل هذا صحيح يا حسنين ؟؟»

أمسك بذقنها مداعبا وقال:

-« بل شابة في سن العشرين . . أنت أغلى عندي من كل هذه الدنيا . . إنني أغار عليك، ولذا لا أتركك لتخرجي وحدك . . وعندما أرى رجلاً يختلس النظر إليك أكاد أخزق عينيه . . »

قالت وهي تربت على رأسه العارية:

-« إذن ستأخذني معك إلى المطار . . »

-« إنه بعيد، وسأنوب عن الجميع . . »

وأصرت على الذهاب معه، فوافق بعد تردد، وأخذا يتحدثان عن ليبيا ومشاريع شركة المقاولين فيها، والثقة التي تضعها الشركة في كفاءة زوج ابنته، والمرتب الكبير الذي سوف يتقاضاه بالعملة الصعبة، وقال لزوجه لا يصح أن نقلق على مستقبل فريدة، فإنها

في الإجازة الصيفية، ويمكنها أن نقضي أربعة أشهر على الأقل ثم تعود لمواصلة دراستها، فضلاً أنها لن يتم توظيفها إلا بعد التخرج، وقد أخذ زوجها وعداً بتعيينها معه في الشركة، وهذا فضل كبير من الله . . وقالت أم محمود . . »

ـ « سوف يكون لديها ما يكفيها من الدخل بإذن الله . »

قال حسنين في ثقة :

ـ « الرزق بالبركة وليس بالكثرة يا امرأة . . »

ـ « معلوم . . »

ـ « وقد أوصيتها بإخراج الزكاة . . كان أبي الفلاح رحمه الله يخرج زكاة المحصول في الحقل نفسه . . أي قبل أن ينقله إلى المنزل . . وأذكر أن جدي أيضاً كان يفعل نفس الشيء . . إن الزكاة ركن من أركان الإسلام . . لكن الناس في أيامنا لا يبالون . . لو دفع أصحاب الملايين حقوق الفقراء لما بات في هذا العالم جائع . . »

وأخذت زوجه تتحدث عن خراب الذمم، وجشع النفوس، والأنانية المسيطرة على سلوك الناس وتصرفاتهم، واللجوء إلى الغش والتدليس لجمع المال، وعدم الاهتمام بالحلال والحرام . . ثم كفت عن الاستطراد فجأة، وقالت وهي مندهشة :

ـ « هل علمت بالخبر الغريب ؟؟ »

ـ « ماذا ؟؟»

ـ « قالوا إن جاد الله اشترى بيتا على ناصية شارعنا. . »

قال حسنين في هدوء:

ـ « ولم لا؟؟ إنه يجمع المليم على المليم. . ويدخر ما وسعه الجهد. . »

ـ « هذا غير معقول. . إن ثمنه حوالي ثلاثة آلاف جنيه يا حسنين. . »

حدق فيها باهتمام وتمتم :

ـ « الناس يبالغون . . »

لقد جاء صاحب البيت المباع يسأل عنه . . وكان معه سمسار وروى كل شيء ببساطة . . »

هزّ كتفيه في قلق وقال:

ـ « ربما . . »

أردفت قائلة :

ـ « والعياذ بالله يقولون إنه يتاجر في المخدرات . . »

صرخ حسنين كمن لدغه عقرب :

ـ « اتق الله يا امرأة . . هذه هي الغيبة بعينها . . وهي إحدى الكبائر التي نهى عنها الله . . »

ـ « وما ذنبي ؟؟ الناس في عزبة السجانة يقولون ذلك . . »

قال وهو يلوح بيده محذراً:

ـ« لا ترددي ما يقولون . . فهم يجعلون من الحبّة قبّة . . »

« استغفر الله . . »

وساور حسنين القلق، كان ميالا لتصديق ما ترويه زوجه، وكان مبعث قلقه، الخوف على جاد الله، وأسرته المسكينة، والواقع أنه لا يمكن تفسير هذا الحدث الهام على ضوء إمكانات جاد الله المادية، ومع ذلك فلا بد من التروي، والتأكد من جاد الله نفسه، وإيصائه بالحيطة والحذر، فستراقبه العيون بعد ذلك، بل إن حسنين يعتقد أن الكلاب البوليسية لم تأت إلا بسبب وشاية ضد جاد الله، وقد نجّاه الله بالصدفة المحضة . . حسنين يعرف ما يفعله جاد الله . . وكثيراً ما حذره من ذلك الفعل الخطر، وخاصة أن جاد الله كثير الأعداء، مكروه من عدد كبير من السجانه ومن المسجونين أيضا، وتحوم حوله الشبهات من قديم، وعندما يشاع أنه اشترى بيتا، فسينقض عليه الأعداء من كل جانب، وسيبحثون له عن مصيبة تقضي عليه، وعلى مستقبله، ولهذا قلق حسنين بشدة . . وأخذ يستجير بالله . . ويضرع إليه أن يسبل ستره عليه وعلى أسرته . . .

كان جاد الله مكبًا على مقعده الخشبي، مستغرقاً في التفكير، وجاء إليه حسنين والقلق العميق بادٍ على وجهه، وهتف:

ـ«أفق يا جاد الله . . »

رفع إليه عينين محتقنتين ، والنوم عالق بأهدابها المتسخة ، وهز رأسه :

ـ« ماذا تقول يا حسنين ؟؟ »

ـ« يا نايم . . قم وحّـد الـدايم . . . »

قال جاد الله وهو يفرك عينيه ، ويبتسم في بلاهة :

ـ« حـي . . . »

دفعه حسنين في خشونة بيده . . وتمتم :

ـ« هل صحيح ما قالوه ؟؟»

ـ« لا أعرف بالضبط ماذا تقصد . . »

ـ« البيت الذي اشتريته يا جاد الله . . . »

تنبه جاد الله تماما ، وتوترت أعصابه :

ـ« وكيف عرفت ؟؟»

ـ« العزبة كلها تتحدث عن ذلك . . »

ـ« إنـه الحقد الأعمى . . والغيرة يا حسنين . . لكنك لست مثلهم . . . تعلم أني قد ادخرت مبلغاً لا بأس به منذ أن كنت في السجن الحربي . . وباعت زوجتي ميراثها . . وجمعنا مبلغاً واشترينا بيتا للزمن . . وأين نذهب عندما نحال على التقاعد ؟؟»

ـ« لكنها ثلاثة آلاف جنيه يا جاد الله . . »

ـ« بالتقسيط يا رجل . . »

وصمت برهة ، ثم استطرد:

ـ« ماذا تقصد ؟؟ حذار أن تعتقد أني نشال أو لا سمح الله مزيف . . أنت تعرف الناس . . »

همس حسنين بصوت حنون خفيض :

ـ« كل ما أريد أن أقوله هو أن العيون عليك . . »

ـ« ولم أنا بالذات . . الملايين تجري أنهاراً . . وناطحات السحاب تعانق النجوم . . والسيارات طولها ستة أمتار تزحم الشوراع . . وهناك آلاف القصور والفيلات أفخم من قصور صاحب الجلالة . . ثم لا تثور الشكوك إلا حول المسكين . . العريان جاد الله ؟؟»

لم يجب حسنين، بينما أخرج جاد الله سيجارة من جيبة وأشعلها وهو يقول :

ـ« القانون يبحث عن الضعفاء أمثالنا يا حسنين . . والغيلان ترتع في كل مكان . . سمعت المأمور يقول يوماً :« القانون مثل خيط العنكبوت لا يصطاد إلا الضعفاء . . » كن غولاً حتى لا يتهمك أحد . . »

فكر حسنين فيما يقوله جاد الله، إنه صحيح في عمومه، فالفساد قد

عمّ، وليس جاد الله وحده هو المجرم العتيد الذي يستغل الشعب، ويمتص دمـاء التعسـاء،يا إلهي .. إن جاد الله يُحسن صياغـة الكلام، ويعبر عن آراء جريئة تصدم من يسمعها، وتجعله أحيانا لا يستطيع الرد

-« ليس الأمر مجرد بيت اشتريته .. »

-« مادا بعد ؟؟»

ظن أنه سوف يكشف عن شرائه للأرض الزراعية التي لا يمكن أن يعرفها أحد، وارتاح حينما سمع حسنين يقول :

-« يتهمونك بالاتجار في السموم .. »

-« السموم !!

-« أجل ... المخدرات .. »

قهقه جاد الله قائلاً :

-« الكلاب الحكومية تشهد .. ألم تكن حاضراً أنت أيضاً ؟؟»

-« لقد سترك الله، فلا تسعى إلى الفضيحة من جديد .. »

رفع جاد الله يديه في حركة تمثيلية وقال :

-« لقد تبت إلى الله .. ولن أعود للمعاصي أبداً .. »

تنهد حسنين قائلاً :

-« يا ليت !! »

-«والدليل على ذلك أني سوف آتي معك إلى الشيخ البحيري. . »

كان حسنين ميالا لأن يصدق جاد الله برغم الشكوك، فالتجارب القديمة معه تجعله لا يثق تماماً في كلامه أو أفعاله، إنه شديد التغير، متقلب المزاج، ينسى عهوده ووعوده، حتى ليبدو ذلك كأنه طبع أصيل مركب فيه،لكن قدرة الله فوق الشك والريب،فمن يدري؟ قد تحل الهداية بقلب جاد الله يوماً ما ، فيمضي على صراط الله المستقيم، ويواظب على صلاتـه، ويبتعد عن الموبقات والمخدرات التي يتعاطاها، ويصبح إنساناً سوياً، وربما يكون أفضل منه عند الله .. لا بد أن يؤمن حسنين بذلـك، والإيمان بقدرة الله على الهداية والتغيير فرض على كل مسلم . . .

كان الشيخ البحيري يجلس كالفلة الندية وسط صحابته الطيبين، والجو يفوح كالعادة برائحة المسك الطاهر، وجلس حسنين وجاد الله حيث انتهى بهما المجلس، كان الشيخ يتحـدث عن رجـل من الصالحين، وعندما أرهف جاد الله السمع، كان الشيخ يقول:

« . . . . . وكـان إبـراهيم بن أدهم يدعـو الله قائـلاً: « اللهم أخـرجني من ذل المعصية إلى عز الطاعة . . » وها أنتم ترون أيها الإخوان الخلصاء أن المعصية ذل . . والطاعة عز . . فأنت حين تعصي الله تكون عبدا ذليلاً لشهواتك . . شهوات الجسد . . والمال . . والسلطة . . وهي كلها إلى زوال، أما الطاعة فهي انتصار على هذا كله . . عنـدئذ يشعر المؤمن بحلاوتها وجمالها ولذتها . . ولذا

يقول أحد الصالحين: « إن بين جنبيّ من اللذة ما لو علمها الملوك لقاتلوني عليها بالسيوف .. إنها لذة التسامي والخلاص من مطامع الدنيا ومغرياتها .. لذة الانتصار الأكبر .. »

وتذكر جاد الله « انتصار » عندما سمع الشيخ يردد كلمة « الانتصار » مرتين .. لقد انتفض جسده .. إن خيالها يأتيه حتى في مجلس العابدين والذاكرين وجهها يتلألأ وسط هالة من الذهب والفضة والبلور .. أيستطيع أن ينتصر على « انتصار » بالمعنى الذي ردده الشيخ ؟؟ كان جاد الله سابحاً في أوهامه، بينما الشيخ يواصل حديثه الشيق، وجاد الله لم يعد يسمع شيئاً .. لكأنما انسدت أذناه بأصابع شيطانية .. والملعونة انتصار تفرض خيالها فرضاً .. حتى لكأنها بلحمها ودمها أمامه .. ترقص .. وتغني ..

والتفت القوم صوب الوافد الغريب جاد الله إذ سمعوه يقول :

ـ« الدنيا غلّابة يا شيخنا .. »

ـ« هذا صحيح .. »

ـ« وهي أقوى منا .. »

ـ« عندما تؤمن تصبح أقوى من الدنيا كلها .. »

ـ« وهل الأقوياء في هذا الزمان أقوياء لأنهم مؤمنون ؟؟»

ـ« تتحدث عن القوة المادية .. وأنا اتحدث عن قوة الروح والقلب .. »

-« أيها الشيخ الجليل . . يصعب عليَّ الفهم . . »

سرت غمغمة بين الحاضرين :

-« هل تضايقتم من أسئلتي ؟؟»

قال الشيخ :

-« سل ما شئت يا جاد الله . . »

-« هل الطاعة تطعم الجياع ؟؟»

استعاذ الشيخ بالله من الشيطان الرجيم، وبسمل، وأخذ يتلو:
-«-.يا مريم، أنىّ لك هذا، قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . . »

أي بنـي . . لقد أقسم المولى جل وعلا علٍ أن الرزق مكتوب . . أتفهم . . أقسمَ باسمه الكريم حين قال في كتابه: « ورزقكم في السماء وما توعدون، فوربِّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنـطقون . . » وكان هناك إعرابي في الصحراء يستمع إلى القرآن، وعندما سمع هذه الآية صرخ قائلاً: « من الذي أغضب الحليم - الله - حتى أقسم . . »
عندما توقف الشيخ عن هذه العبارة، صاح الجالسون: « الله أكبر . . الله أكبر . . »

ونـظر جاد الله إلى حسنـين فوجـد الـدموع تنهمر على خديه . . وأخذت جاد الله رجفة هو الآخر . . ووجد نفسه ينادي كمجذوب « الله أكبر . . الله أكبر ».

وعـاد الشيخ يقـول: «واعلموا أن لكل شيء سبباً» ازرع تحصد،

واعمل تكسب، واذكر الله يذكرك .. وادعه يستجب لك .. قيل لأحد الصالحين لماذا نحب الدنيا ونكره الآخرة .. ونخاف الموت .. قال لأنكم عّمرتم دنياكم، وخربتم آخرتكم، وأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمار .. إلى الخراب ..»

وقف جاد الله هذه المرة، وقال بصوت واضح الانفعال:

-« لا بد من تطهير هذه الأرض من الفساد .. وذبح كل الشياطين .. ولا حل غير ذلك .. ماذا ترى يا شيخنا؟»

ابتسم الشيخ ثم قال :

-« قال جبريل لحبيبنا رسول الله، حينما آذاه الكفار .. لو شئت يا رسول الله أطبقت عليهم الجبلين .. لكن الحبيب أبى ذلك في حنان وصفح وقال: لا .. لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبدون الله .. أو كما قال .. هل فهمت؟؟ الهدم والقتل يسهل عملهما .. أما البناء والإحياء فهو الذي نريد .. فلنحاول أن نخرج الناس من ذل المعصية إلى عز الطاعة .. والعزة للهولرسوله وللمؤمنين ..»

مضى في طريقه كطيف خيال .. لم يعد يشعر بتعب أو ألم .. لكن الجو الغريب الذي دفع به الشيخ إليه يسيطر على كيانه .. وكلام الشيخ ليس هراء أو حديثا أجوف .. لقد عجز جاد الله في النهاية عن أن يفحم الشيخ أو يجعله يتلعثم .. كان كمن يغترف من بحر .. يتدفق الشيخ كشلال .. كلامه يدخل الآذان، ويمضي سريعاً إلى القلب، ويستقر في العقل .. لقد ضاع جاد الله تماماً .. إنه لا يدرى أين يتجه ...

قابلته زوجه باهتمام وقالت:

ـ« لقد جاءت وأخذت الأمانة حسب أمرك . . »

قال في دهشة :

ـ« من؟؟ وأية أمانة؟؟»

ـ« المرأة إياها . . تقول أن اسمها انتصار . . أخذت الماكينة لا أعرف ماذا تفعل بها؟؟ وقالت أنك أمرت بذلك . . وهي . . »

صرخ في جنون :

ـ« أيتها الملعونة . . لقد خدعتك . . كيف» . . كيف؟؟ مستحيل . . »

وأخذ يضرب رأسه، ويدق الأرض بقدمية ويقول :

ـ« نحن في منتصف الطريق . . ما معنى ذلك؟؟»

وهرول خارجاً في ذعر . .

طارت من رأسه كلمات الشيخ الحلوة . .

عاد وحشاً كما كان دائماً . . .

وأشار إلى تاكسي كي يلحق بانتصار ليعرف حقيقة ما جرى، إذ من المستحيل أن ينام وهو على هذه الحالة، لو أن الأمر قد تحول فهذا معناه كارثة كبرى، فلا بد أن يدفع ما عليه من ديون الأرض والبيت . . وبعدها . . بعدها يمكن أن يتوب . . أو على الأقل يفكر جديا في التوبة . .

- ١٣ -

أخذ يدق الجرس دون فائدة، وبعد أن يئس من الجرس تحول الى البـاب ليدقـه بقبضـاته القوية المتشنجة بصورة جعلت بعض السكان يطلون مستغربين من الشرفات، ثم أخذ ينظر عبر الشقوق والثغرات لعله يلتقط خيطاً من نور داخل شقة انتصار، فلم يجد شيئـاً، إن عقله يكـاد يطير، والعالم أمامه أصبح أضيق من ثقب الأبرة، إنه يريد أن يحطم الأبواب، ويكسر زجاج النوافذ، يريد أن يفعل أي شيء ليخفف من الانفعال العاصف بداخله والذي يكاد يفجرّه، ترى ماذا يفعل؟؟ أخذ يقطع الشارع جيئة وذهابا، يهرول ثم يبـطىء، ويتـوقف ثم يتحـرك، ويعتصر إحـدى يديه باليد الأخرى، ويزفر في ضيق، ثم يدق بظاهر كفه الأيمن على جبهته، لا يستـطيع أن يتوقف عن الحركة .. كيف حدث ذلك؟؟ كيف تجرأت انتصـار على نقل الماكينة من بيتة؟؟ ألم تكن تعلم أنه من المحتمل أن يكون موجوداً بالمنزل؟؟ لاشك أنها عرفت بأسلوب أو بآخر أنه غادر مسكنه وإلا فكيف حضرت بنفسها؟؟ أجل .. إن لها شبكة واسعة تديرها، ولها مثل الحكومة جهاز تحريات ومخابرات، وقد يكون لديها أكثر من ماكينة، من الواضح أنها تعمل على نطاق واسـع، وأنها سريعـة الحركة، وأنها تفعل كما يفعل قادة الجيش، عندما يموهون، ويغيرون مواقع الجنود، ويقومون بهجمات خادعة، حتى يوقعوا العدو في الشرك، أو يثيروا الخلل والاضطراب في نفسه .. انتصار جبارة لا شك، ورأسها يحتوي على مخ كبير .. العمل معها يوحي بالثقة والمتعة، بالإضافة إلى القائدة السهلة المجزية .. « لن أتخلى عنها ما حييت، إن لقائي معها هو فرصة العمر الوحيدة، ولن تتكرر .. يجب أن اكون رصينا عاقلاً »

وقرر جاد الله أن يعاملها بمنتهى اللطف والرقة هي امرأة .. امـرأة أغـدقت عليه كما لم يغـدق عليه أحد من قبل، حققت له الآمال، وانتشلتة من وهدة الذل، وملأت جيوبه بالمال، وأسرفت في إمتاعه حتى كاد يغص بالنشوة العارية، وتعلم منها ما لم يتعلمه في القصر أو الحقـل أو الشـارع أو الجيش أو السجـون، تلك هي العبقرية بحق .. إن الذين يؤلفون الكتب، ويخطبون في المحافل، ويكتبون في الصحف، لا يمكن أن يضاهوها فكراً وتنظيما وإنتاجا .. لو لم يذهب إلى البحيري لما حدث ما حدث .. كان لا بد أن يتفرغ جاد الله تماما لعمله، وينسى كل شيء إلا انتصار .. ماذا جنى من حسنين؟؟ بعض المسكنات التي هدأت من روعه، وفتحت أمامه باب الأمل في التوبة .. إنه يشعر بالندم لذهابه الآن .. ومنذ ساعة كان سعيداً بذلك الذهاب .. أي إنسان هو؟؟

ورأى سيارة سوداء تدلف وتتوقف قرب بابها، لجأ هو إلى شجرة ليرقب ما يجرى، رأى انتصار تنزل من السيارة بسرعة، ثم غابت في لمح البصر عبر الباب .. وانطلقت السيارة بعد أن استدارت .. وزحف هو نحو الباب بهدوء مشوب بالتوتر .. وما أن دق الباب حتى فتحت له، وما أن رأته حتى قالت بصوت تخالجه الميوعة المتعمدة:

-« ورائي دائمًا . .كيف أهرب منك؟؟ أنت قضائي وقدري.. »

وأعطته ظهرها، ومضت للداخل، وأغلق الباب وتبعها. وقد اطمأن باله قليلا :

-« ما دمت تعرفين ذلك، فلماذا هذه الألاعيب؟»

التفتت إليه وقد بدا الغضب في عينيها!

ـ« لقد خرقت الاتفاق للمرة الثانية . . وذلك معناه أن تقضي علينا جميعا . . عرف الجميع أنك اشتريت البيت . . وأشاعوا أنك من تجار المخدرات . . كان ذلك هو التفسير الوحيد . . وهو مطمئن بالنسبة لي، لكن ماذا يحدث لو داهموا بيتك بحثا عن المخدرات ووجدوا الماكينة والأدوات . . فكرْ جيدا . . أن ما أقدمت عليه كان لمصلحتك أولاً، ولمصلحتنا ثانيا . . علمتني الأيام أن أسبق الحوادث . . هل فهمت يا جاد الله؟»

كان مقتنعا تمام الاقتناع بما قالت، لكنه كان ساخطاً على محفوظ، إن كراهيته له تزداد يوما بعد يوم، وقضبان السجن وأسواره لم تمنع محفوظ من الاتصال الدائم بها والتنسيق معها.

قال جاد الله في حمق :

ـ« إن محفوظ يتحداني . . لقد بدأ يشك ويغار . . »

قهقهت في ميوعة وقالت :

ـ« وماذا يفعل الطائر الحبيس في القفص سوى أن يندب حظه، ويشقى بالحسرة؟؟»

ـ« هو الذي وشى بي . . »

ـ« إن كان قد فعل، فقد أنقذنا وأنقذك . . محفوظ رجل . . »

التفت إليها في غيظ وقال:

ـ« أهو التحدي؟؟»

ـ« لقد ضحى بنفسه من أجلنا . . أنقذنا من الإدانة، وذهب هو ليقضي سبع سنوات في الوحدة والعذاب . . أتفهم معنى السجن يا سجان؟؟»

قال وهو يحاول الهروب من مواجهتها:

-« أفهم من ذلك أنك ما زلت تحبينه . . »

-« إن القلب ليس ضيقا كما تتوهم. .ومحفوظ جدير بالاحترام .. »

ثم أخذت تشرح له سياستها الجديدة، أفهمته انها اتخذت قرارين للتنفيذ فوراً، أولهما نقل الماكينة إلى مكان أمين، وثانيهما التوقف عن الإنتاج والتوزيع لمدة اسبوعين، حتى ينجلي الموقف تماماً، وتتم التحريات المطلوبة، وأكدت له أنه ليس هو الرجل الحكومي «الوحيد »معهم، إذ أن لهم مخبرين في قلب الأجهزة الرسمية، وفي قسم مكافحة التزييف بالذات.

ابتسم في استسلام وقال:

-« لو فعل السياسيون مثلما تفعلين لقلبوا نظام الحكم في ليلة.. »

-« لا دخل لنا بالسياسة يا جاد الله . . نحن متواضعون لأبعد حدود التواضع . . هل اقتنعت؟؟»

أبدى تخوفه من شيء أساسي بالنسبة له، ألا وهو الثقة به، واعترف بخطئه الجسيم، وتعجله في تحقيق مآربه، لكنه توسل إليها أن تساعده في إتمام صفقاته حتى لا تضار مشاريعه، وينكشف أمره إذا لم يؤد التزاماته، فطمأنته على ذلك تماما، وشرحت له كيف أن أخطاءه كانت متوقعة، لأنه يتعلم « المهنة» لأول مرة، ومن ثم فإن الخطأ كان محتملاً، وكان ذلك هو السبب في متابعته، وتكثيف المراقبة حوله، وحتى عندما سافر إلى القرية كان هناك من يراقبه، وقالت ببساطة:

-« أنت في حاجة ماسة إلينا . . ونحن في حاجة أيضا إليك . .

فلا غنى لأحدنا عن الآخر . . ونحن نحرص بشدة على العناصر الحكــومية مثلك . . ولــو لم أثق بك، لما كشفت لك عن هذه المعلومات كلها . . »

وابتسمت في خبث وقد اقتربت منه حتى كادت تلاصقة:

ـ« ثم إن قلبي اختارك يا جاد الله . . يا وحش . . »

جرت الـدمـاء فوّارة في عروقـة، الكلمة الوحيدة التي تثير حميته، وتشعل كيانة «الوحش» . . اللحن الغجري الصاخب الذي يجعل كل عضلة في جسدة تهتز . . ترقص . . الوحش . . الكلمة التي تحلق به فوق قمة النشوة العالية.

ـ« كلماتك يا انتصار تمدني بطاقة لا حدود لها . . »

ـ« انا أعرف مكامن الخطر . . »

ـ« ولهذا أحبك . . وأخاف منك . . »

ـ« أنت تبالغ . . »

ـ« على الرغم من ابتسامتك فأنت قاسية في قربك..وبعدك .. »

قالت وهي تجلس وترمي بحذائها بعيداً، وتكشف عن ساقيها الجميلتين:

ـ« ماذا تقصد بالقسوة يا جاد الله؟؟»

ـ« أقصد . . أقصد . . لم أعد استطيع التفكير . . »

ـ« إذن لا بد أن تطفيء الظمأ . . »

ـ« هيا بسرعة . . »

قالت انتصار وهي ترفع يدها :

-« بشرط . . »

-« موافق مقدما . . »

-« ألا تذهب مرة أخرى للشيخ البحيري . . »

فغرفاه في ذهول وهتف:

-« هل عرفت؟؟؟ »

-« أنت لست في وعيك على الرغم من أنك لم تشرب بعد . . ألم أقل لك منذ فترة وجيزة أننا نراقبك . . »

-« هو رجل حسن النية، لكني لن أزوره . . »

قالت وهي تتمطى وتبرز مفاتن صدرها:

-« نحن والبحيري على طرفي نقيض . . بصراحة هو رجل آخرة، ونحن أبناء دنيا . . هو سماء ونحن أرض . . تعرف ذلك . . وعلينا أن نختار . . وقد اخترنا . . ولا مجال للتراجع . . لنعش حياتنا ، وليعش حياته . . أنا أحب هؤلاء الناس، لكن من الصعب على اناس مثلنا أن ينتظروا العمر كله حتى تفتح الجنة أبوابها . . »

قال جاد الله وهو يبتسم في انبهار:

-« تتكلمين كالشيوعيين . . »

-« أنا لا شيوعية ولا يحزنون . . ولا أعرف ما هي الشيوعية . . أنا امرأة خرجت من كل شي . . واختارت طريقاً . . سافرت لبنان عندما اشتغلت « تاجر شنطة » وهناك لأول مرة وجدت زمنا غير زماننا . . يفعلون كل شيء هناك دون حرج . . لا تجعلني أتحدث عن هذا

الأمر . . أترى لماذا أحببتك؟؟»

قال جاد الله في لهفة وتشوق:

ـ« لماذا ؟؟»

ـ« لأنك قذر . . »

دق قلبه في حيرة: وقال في استنكار:

ـ« قذر ؟؟ هذا أمر صعب . . »

ـ« وتصر على قذارتك . . »

ـ« وهل هذه ميزة يا انتصار . . »

ـ« بكل تأكيد . . »

ـ« كيف ؟؟»

ـ« لأنك صريح . . لا تكذب على نفسك . . وممن كنت تظن أن تتعلم الأخلاق ؟؟ من الاسطبل ؟ قصر الباشا؟ الوسط الفني؟ السجن؟ الجوع؟ السياف ؟؟ الرعب والكذب والنفاق الذي يعم كل شيء . . »

صبت كأساً له، ثم صبت لنفسها وشربته دفعة واحدة، ففعل مثلها، وأخذ يلتقط شيئاً من المزة، وسمعها تقول:ـ

ـ« بقي شرط آخر . . »

ـ« ألم تنته الشروط بعد؟؟

ـ« محفوظ . . »

دق قلبه غيظا . . دائمًا محفوظ لشد ما يكره هذا الإنسان، ولماذا لم

يتخلص منه بأية وسيلة، حتى لا يصبح مادة للحديث بعد ذلك، قال:

-« ماذا عن محفوظ يا ست الكل . . »

-« ألا تصيبه بأذى . . أنا أعرفك . . »

قال وهو يعود إلى الكأس:

-« إن قذارتي لن تصل بي إلى حد الفتك به وهو سجين . . من أجلك أنت يا نور عيني . . »

وعادت تقول :

-«إن عملنا هذا لن يستمر إلى الأبد . . من الحماقة أن نبقى نزيف الأوراق المالية حتى نقع في الفخ . . ولو أصررنا لسقطنا دون محالة . . العقلاء يغيرون من أساليب نشاطهم . . سوف نتحول إلى التجارة . . أو التهريب . . لا بد أن نتحول . . من يدري قد أعود إلى الفن مرة أخرى، ونكون فرقة ويكون لنا إنتاج فني كبير يخدم المجتمع . . ها . . ها . . ها . . الجميع يخدمون الوطن يا جاد الله . . وكل شيخ وله طريقة . . »

وأخذا يتقارعان الكؤوس. ولم تكن راغبة في أن يتمادى في الشراب حتى يسكر، ولهذا وقفت له بالمرصاد، إنها تعرف كيف تتحكم في مشاعرها، وتكبح نهمها.

-« من أين أتيت بهذا العقل كله يا انتصار؟؟»

-« من علب الليل . . »

-« وهل لليل علب ؟؟»

-« أيها الساذج . . هناك المجتمع العادي بكل مساوئه . . ليست هناك عقبة احترام أو أخلاق أو كرامة . . الكل يلهو ويشرب ويرقص ويفعل ما يحلو له . . غابة جميلة من الوحوش الآدمية . . وفي الصباح تراهم يجلسون على المكاتب الأنيقة . . والأرائك الموشاة، ويتحدثون باحترام وتأنق وتحضر . . »

قال في شوق عارم :

-« أريد أن أرى بنفسي كل شيء . . »

-« لا تتعجل يا جاد الله . . أنت تحتاج إلى تدريب طويل . . »

حدق فيها النظر . . وأطال التحديق، وهتف في حيرة بالغة :

-« مَنْ أنت؟؟»

قالت ببساطة غريبة :

-« أنا انتصار . . »

-« لا تهربي . . »

-« لست جاسوسة اسرائيلية . . »

-« حسن . . فمن أي بلد أنت ؟؟»

-« كفر البلاص . . »

تهربين مرة ثانية . . »

قالت وهي تجرع بهدوء

-« أتريد الحقيقة؟؟»

-« بالتأكيد . . »

-« لا أعرف . . لكن معي جواز سفر . . وكنت ساقطة القيد

.. وماذا يهم؟؟ هنا أو هناك .. الأرض لا تتحيز لأحد .. وتفتح ذراعيها في ترحاب، ثم تحتضننا عندما نموت ..»

وترقرت الدموع في عينيها ..

قال:

-« دعينا من هذا .. لنمرح ونسعد .. فالعمر قصير ..»

وضغطت على زر في الراديو، وانبعث صوت المطربة يتأود:

أنا شفت جمـال

أنا شفت جمال .. والنبي يامّه ..

وربطت انتصار شالاً حول أسفل بطنها، وأخذت ترقص على اللحن الطروب ..

- ١٤ -

ضرب الأمباشي حسنين كفا بكف، كاد الذهول والدهشة تذهبان بتعقله ورزانته، كيف يمكن تصور ما حدث؟؟ كانوا يتحلقون حول الشيخ البحيري في جلستهم المعتادة بعد صلاة العشاء، وكان الشيخ يشرح لهم بيتا شهيراً من الشعر للإمام البويصيري رحمه الله :

والنفس كالطفل إن تتركه شبّ على

حُب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وأخذ الشيخ يفيض في رياضة النفس، وكيف يدربها صاحبها على التقشف، ويربيها على الحرمان. ويزجرها عند التفكير في المطامع، ويكبحها عند النظر إلى الشهوات، ومن ثم تعتاد النفس على الاستقامة، وتتبنى سلوك الطهر والتقوى، فيصبح ذلك طبعا أصيلاً فيها، وما الصوم إلا رياضة نفسية لتدريب الإنسان على التصدي لشهوة المعدة والفرج، والغيبة والنميمة وما إلى ذلك من الصفات الذميمة، وجميع الضوابط الأخلاقية في الاسلام، تعنى رياضة النفس بأسلوب أو بآخر، قال رجل في آخر الصف، غريب الصوت والسحنة :

-« والفقراء الذين يعيشون في حرمان دائم من كل شيء، أتراهم في حاجة إلى تلك الرياضة يا مولانا؟؟»

رمقه الشيخ بنظرات ذات معنى وقال :

-« عليهم أن يروضوا أنفسهم على الصبر، ويغالبوا أحقاد النفس وتمردها، والأحكام الشرعية جاءت للجميع دون استثناء . . »

وعاد الرجل يقول:

-« إنهم مظلومون يا شيخنا . . »

-« فليبحثوا لهم عن مخرج . . »

-« كيف ؟؟»

قال الشيخ بعد أن استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وبسمل:

-« ومن يتق الله يجعل له مخرجاً »

قال الرجل الجديد :

-« أنت تدعوهم إلى الصبر . . والصبر هنا خنوع . . »

ابتسم الشيخ في رقة وقال :

-« الصبر طاعة وهداية ونور . . وقوة إرادة . . أما الخنوع فهى شىء آخر إنه ليس من صفات المؤمنين الصادقين . . »

ثم أخذ الشيخ يترنم بصوت عذب حنون، جياش العاطفة :

املأ الكأس بالرضى — وأرو قلباً متيما

هكذا الله قد قضى — إن في الزهد مغنما

—

واجعل الحب مركبا — وبراقا إلى الجنانْ

وخذ الصبر صاحبـــا — تجد الأُنس والحنانْ

وما أن أنتهى الشيخ من انشاده حتى هتف الحاضرون بالتكبير والتهليل، ومضى الشيخ يحدثهم عن نزعات الشياطين، وكيف تستولى على بعض المشاعر والأفكار، وتبعث البلبلة في نفوس الضعفاء، فتقلب الحقائق وتعكس البديهيات. وتوقع المساكين في

حيرة، فيتصرفون دون وعي، عندئذ تَدْلهمُّ الفتن، ويختلط الحابل بالنـابـل، فيعلو الأسافل، ويُداس الأشراف، وتظلـم الدنيا، وفي الظلام تحتضر قيم الحب والخير والفضيلة، وقبل أن ينتهي الشيخ من كلامـه، وقف ذلك الرجل الجديد شاهراً مسدسه، وصاح في خشونة :

-« لا يتحرك أحد منكم من مكانه . . »

ثم أخرج من جيبة صفارة، أخذ ينفخ فيها بطريقة معينة مزعجة، وقال «حسنين أبو زهرة» وقد استولت علية الدهشة :

-« ماذا جرى؟؟»

تمتم الشيخ في حزن وألم

-« الهرج والمرج من علامات الساعة . . »

وداهمت المكـان كوكبـة من الـرجال الغرباء، يعرفهم الناس عادة بملابسهم وسماتهم المميزة، وأحاطوا بالجالسين من كل جانب، وقد سددوا مسدساتهم إلى الجالسين، وتمتم حسنين مرة أخرى:

-« ما هذا الذي يحدث؟؟»

رد عليه رجل من المداهمين :

-« ضع لسانك في فمك واصمت . . »

-« أليس لنا الحق في الاستفسار؟؟»

-« لا . . »

-« هل معكم إذن من النيابة؟؟»

-« أية نيابة يا روح أمك؟؟»

قال حسنين في غضب :

-« احتشم يا رجل .. أنا رجل حكومي مثلك .. »

رد المخبر ساخراً :

-« هذا ألعنْ .. هيا معنا جميعا .. »

ثم التفت إلى الرجل الذي كان يناقش الشيخ منذ دقائق قليلة :

-« شكراً يا حضرة الضابط .. »

وحشروا الشيخ البحيري ورجاله في سيارتين نصف نقل، وأغلقوا عليهم الباب الخلفي، ونظر الشيخ إلى وجوه رجاله الشاحبة .. والحيرة المرتسمة على وجوههم، وبعضهم بدا الرعب جليا في نظراتهم القلقة، هتف الشيخ في ثقة :

-« وحِّدوه .. »

فردوا تلقائيا :- « لا إله إلا الله، محمد رسول الله»

وسادت فترة صمت قال الشيخ بعدها :

-« هذه أوقات اختبار .. التزموا بما سمعتموه اليوم في الدرس وفي الدروس السابقة .. وتيقنوا أننا لم نكن نقول كلاماً لمجرد التحصيل العلمي والنفقة، ولكن للتطبيق وقد حانت ساعة الاختبار .. إما النجاح .. وإما الرسوب وثقوا أن الله معكم .. أيها الإخوان قد يُحال بيني وبينكم، وبينكم وبين بعضكم البعض .. فلا تهنوا ولا تحزنوا، فإن معكم مَن هو أقوى مني ومنكم ومن الجميع .. معكم الله .. فاعتصموا بحبله .. واذكروه .. اذكروه في كل لحظة .. واجعلوا من سجنكم خلوة .. واعلموا أن كل شيء بأمره .. وأنه لو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يضروك، فلن

يضروك إلا بشيء قد كتبه الله لك . . »

هتف أحد الدراويش في استغراب :

-« السجن؟؟»

-« ألم أقل لكم أن الدنيا سجن المؤمن؟؟»

-« لكننا لم نرتكب جرما يا شيخنا . . »

قال الشيخ محذراً :

-« احذر الغرور . . كم من المآثم نرتكبها دون أن ندري!! لكن الله غفور رحيم . . »

أطل عليهم من كوة في الحاجز الذي يفصل بينهم وبين مقدمة السيارة التي بها السائق، وجه مكشر عن أنيابه، ذو شارب كث، وملامح حديدية سمراء وقال في حزم :

-« الكلام ممنوع . . »

وسيق الذين آمنوا إلى غرفة شاسعة، بها بعض المكاتب والخزائن الخشبية والمعدنية، وصورة ضخمة للسيد الرئيس، يجلس تحتها شاب أنيق جميل السمات، فاحم الشعر، يضع في إحدى زوايتي فمه سيجارة فاخرة، كان ينظر في أوراق أمامه، ودق المخبر الأرض بقدمه، ثم أدى التحية وهو يهتف: « تمام يا أفندم »

قال الشيخ البحيري، وهو يلوح بيده وفيها المسبحة البيضاء :

-« السلام عليكم . . »

سدد إليه الضابط نظرات ثاقبة، ثم عاد ينظر إلى أوراقه دون أن يرد، وظلوا واقفين، وهو يعبث بالقلم على الورق، ثم قال دون أن يرفع رأسه :

-« خذهم .. وضع كل مجموعة في غرفة .. أما الشيخ ف .. »

أكمل المخبز قائلاً:

-« حبس انفرادي يا افندم .. »

ونادى المخبر عليهم كي يتبعوه، لكن الشيخ البحيري توقف قائلاً:

-« أيمكن أن .. »

قاطعه الضابط في غلظة :

-« اذهب مع المخبر، واسمع الكلام .. »

-« لكن .. »

صاح فيه بغضب :

-« لا لكن ولا حاجة .. أتظن نفسك في حلقة ذكر أو في المنطقة التعليمية .. أنت في وزارة الداخلية يا بك .. وعندنا هنا لا كبير ولا صغير .. الكل واحد .. وطبعا أنت تؤمن بالمساواة .. توكل على الله .. »

استدار الشيخ وهو يتمتم : « ونعم بالله .. »

وران الصمت على الغرف الصغيرة المغلقة، ولم يكن يقطع الصمت إلا كلمات التهديد والوعيد التي يطلقها العساكر في الخارج، وجلس الشيخ في غرفته وحيداً، ممسكا بمسبحته، واستغرق في قراءة أوراده اليومية، كان قلقا بعض الشيء لأنه لم يفهم بعد معنى لذلك الأمر المفاجىء الذي ليس له ما يبرره، وكان قلقه منصباً على الرجال الطيبين الذين أخذوا إلى المحبس دون ذنب جنوه، لكنه استعاذ بالله من الشيطان وأخرج مصحفا صغيراً من جيبه، وأخذ يقرأ فيه، والدموع تتساقط من عينيه وتبلل لحيته، وتناهى إليه صوت أحد

الإخـوان وهـو يدق البـاب ويقـول:ـ «نريد أن نتوضأ» فرد عليه الحارس الذي يتجول في الممشى الخارجي ببطء:ـ « لن يفتح الباب إلا في الصباح. . »، وما أن سمع الشيخ ذلك حتى اقترب من باب محبسه، ونادى بأعلى : « تيمموا . . وإذا لم يتيسر الماء»، ثم يسمع الحارس يقهقه ويقول :

ـ« اظهر يا زعيم . . »

ثم قال في سخرية :ـ « الزعيم يقول لكم تيمموا . . أو يمكنكم تأجيل الصلاة حتى الغد أو بعد غد . . »

أما حسنين فقد كان في حالة من الضيق لا مثيل لها، إنه رأى بنفسه الكثير من التجاوزات والأخطاء والمظالم التي ترتكبها السلطة، وكثيراً ما كان يرى سبباً ـ ولو بسيطا ـ لذلك، لكنه هذه المرة لا يستطيع استكناه أو فهم ما يجري من أحداث، وإما أنهم أطفال، أو أغبياء، أو عابثون يريدون أن يتسلوا بعبيد الله، إنه شاهد على كل شيء، فالشيخ البحيري لم يتطرق مرة واحدة للسياسة بهجوم أو نقد، إن الرجل يعرف طريقه، فهو يعلم الناس المبادىء، ويحثهم على الطاعة والتقوى، واثقا بأن الإيمان الصحيح الحقيقي يحل كل المشاكل، ولا ينبت إلا الخير والمحبة والتسامح . . .

وتذكر حسنين التهديد الذي أطلقه «جاد الله» ذات يوم حينما أنذر حسنين بأنه قد يبلغ المباحث عن نشاط الشيخ البحيري، بحجة أن دروسه والناس الذين حوله يشكلان خطراً ضد أمن الدولة، أيمكن أن يفعلها «جاد الله»؟؟ أتصل به النذالة إلى هذا الحد من الجهل والحماقة والغدر؟؟ لو أن هناك من يستحق أن يسجن لكان جاد الله وأشباهـه، وانفعل من الغيظ، وأخذ يدق جدران الغرفة بقبضتة

المتصلبة، لكنه سمع طنينا كطنين النحل، ها هم إخوانه يذكرون الله، وتذكر شيخه وهو يوصيهم بأن يجعلوا من سجنهم خلوة، لكن أيمكن أن يطول هذا الاحتجـاز؟؟ وقبيل الفجر بدقائق استدعي الشيخ البحيري للمكاتب . . تنفس الشيخ النسيم البارد، فشعر بقـدر غير قليل من الانتعـاش، إنه لم ينم لحظة، وكانت الأفكار الكثـيرة تحاصرة، لكنه كان يجاهد في التغلب عليها بقراءة القرآن والاستغفار والذكر، وهكذا ظل متيقظا عابداً، يدعو الله ويتوسل إليه، ويعلن مؤكداً من آن لآخر رضاه بقضائه وقدره .

وفوجىء الشيخ عندما دخل المكتب، بصوت كصوته تماماً يتردد في جنبـات الغرفة المضيئة، ونفس الضابط الذي استقبله، يبتسم وينظر إليه نظرات ذات معنى، ودفع المخبر الشيخ في غلظةوخشونة وهو يقول: « تحرك . . مالك كالصنم!!»، واستغفر الشيخ، ثم سمع الضابط يقول :

-« هل هذا صوتك؟؟»

-« لكأنه هو . . »

-« وهل هذه خطبتك؟؟»

واستمع الشيخ برهة، ثم قال:

-« نعم . . »

وأغلق الضابط المسجل وهو يقول:

-« كنا نحصى عليك حركاتك وسكناتك، ونسجل كل ما تلقيه من أحـاديث، حتى ما تقـولـه في المنطقة كنا نسجله . . ونعرف الصحف التي تقـرؤها، والكتب التي تقتنيها . . ونعرف مريديك

وأتباعك بالاسم والعنوان والمهنة . . إنهم تشكيلة غريبة، لا نعرف كيف اجتمعت عليك؟؟»

قال الشيخ في ثقة :

ـ« بل اجتمعوا على كلمة الحق . . »

ـ« هو تنظيم إذن . . »

ـ« أو تكره التنظيم يا بني . . »

وقف الضابط محتداً :

ـ« إنه اعتراف صريح . . »

ـ« بماذا يا ولدي . . »

ـ« بأنك قمت بتكوين تنظيم من أفراد مشبوهين، لمناهضة نظام الحكم في الدولة، مخالفاً بذلك القوانين واللوائح، ومتستراً تحت ستار الدين . . والدين منكم براء . . »

تحجرت الدموع في عيني الشيخ، ونظر في دهشة، ثم قال بعد أن استعاذ وبسمل :

ـ« أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى، أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم »

قال الضابط في توتر:

ـ« قل كلاماً مفهوماً . . »

ـ« إنه كلام الله . . »

اقترب الضابط من الشيخ ورفع يده ليصفعه، لكن الشيخ صرخ صرخة اهتز لها كيان الضابط إذ قال:

-« اخشـع يا بني . . فما تقـوله هراء . . ولسنا تحت الحكم العـرفي، فلتستدع النيابة، ولتأمر باستجوابي رسميا . . البلد فيها قانون وأنت تعرف . . »

عاد الضابط إلى كرسيه، وفتح الأوراق وقال:

-« تكلمت في خطبك عن الاسافل . . فمن هم؟؟»

-« الأسافل هم الأسافل . . وأنت تعرف»

-« وماذا تقصد بالفتن ؟؟»

-« الإيقاع بين الناس بالفساد والكذب . . »

-« تتحدث عن الظلم كثيراً . . »

-« ظلم النفس . . وظلم العباد . . وظلم ال . . »

قاطعة الضابط قائلاً:

-« قف عند ظلم العباد . . »

وقفت . . »

-« طبعاً تقصد أن الحكومة تظلم؟؟»

قال الشيخ باسمًا:

-« كيف تثبت ذلك؟؟»

-« كلامك كله رمز . . وأنت الذي يستطيع حل الرموز. . »

-« لا غموض فيما اقول . . فأعد سماع التسجيلات. . »

-« الأسلوب الوحيد لانتزاع الاعتراف منكم هو الضرب. . »

قال الشيخ دون تردد:

ـ« عندئذ يكون الظلم . . »

هب الضابط واقفاً مرة أخرى وقال:

ـ« نحن نضرب أكبر رأس في البلد . . هل معنى ذلك أننا نظلم؟»

ـ« قوانين الأرض والسماء وضعت قواعد لذلك . . »

قال في ضيق نافذ.

ـ« أعرف أنه لا فائدة منك . . أما مريدوك فسيتكلمون»

وقال الشيخ :

ـ« وجبت صلاة الفجر . . »

ـ« فلتؤجلها . . »

ـ« الصلاة لوقتها يا بني . . وأنت ألا تصلي؟؟»

ـ« أنا أؤدى عملاً . . . العمل عبادة . . »

ـ« لكنه لا يلغي الصلاة . . »

لم يرد الضابط، وإنما أشار إلى المخبر قائلاً:

ـ« خذوه ليتوضأ ويُصلي . . وأعيده إلى غرفته . . »

وتعرض الرجال المحبوسون لضغوط شديدة، كما لاقوا الكثير من السب والصفع والضرب بالخيزرانة، وظلوا طوال اليوم التالي يعانون من التهديد والوعد والوعيد، ولم تسفر التحقيقات عن شيء له قيمة، وفي اليوم الثالث جاء ضابط كبير إلى الشيخ في زنزانته وقال:

ـ« معذرة يا شيخ . . كانت مجرد وشاية . . وتأكدنا تماماً من سلامة سلوكك أنت ورجالك . . وسيفرج عنكم الآن، وأنت تعلم

أننا لم نفعل ما فعلنا إلا لدواعٍ أمنية بحتة، فالأعداء في الداخل والخارج .. وطبعا قرأت عما فعله الإخوان المسلمون والشيوعيون والبعثيون والعمال وطلبة الجامعة، واليهود يقفون لنا بالمرصاد .. والاستعمار يتربص بنا الدوائر .. والثورة المضادة تنتظر الفرصة السانحة .. ولو لم نكن على يقظة تامة لضاعت البلد ..»

لم يجب الشيخ بشيء، ظل مطرقا مفكراً، لكنه سمع الضابط الكبير يقول ببساطة :

ـ« لا بد أن توقعوا على إقرار بعدم العودة لعقد مثل تلك الاجتماعات مرة أخرى ..»

رفع الشيخ رأسه في دهشة وقال:

ـ« ما دامت قد اتضحت براءتنا، فلماذا هذا الاجراء؟»

ـ« مجرد احتياط..»

ـ« لكننا نصلي ونعبد الله ..»

ـ« أعرف ..»

ـ« ونجتمع على خير .. والناس يجتمعون في كل مكان .. في المقاهي والمساجد والأسواق والحانات ودور اللهو ..»

قهقة الضابط الكبير وقال:

ـ« هؤلاء لا خطر منهم ..»

ـ« فساد الأخلاق هو الخطر لو تعلم..»

ـ« الأخلاق هي السمع والطاعة لولي الأمر .. من أجل المصلحة العامة .. إن ما نفعلة اجراءات وقائية لا تضر ..»

تمتم الشيخ متسائلاً:

ـ« لا تضر ؟؟»

ـ« بالتأكيد .. فسيلزم كل واحد منكم بيتة، كي يحسن رعاية أسرته، وتربية أولاده .. أليس هذا صحيحاً؟؟»

لم يكن الشيخ يصدق ما يسمع، أيصل الأمر لهذا الحد من الكبت والإكـراه والتضيق؟ إن العـالم كله سينفجر يوماً ما، وإن الغضب المختزن قد يتحول الى تدمير رهيب، إن الفساد يجد متنفساً له في كل مكان، أما الدعوة إلى الخير والفضيلة، والتجمع على الإيمان والتقوى فهي كلها ممنوعة بحكم رجال الأمن، أيمكن أن يكون هذا أمنا؟؟

وقال الضابط:

ـ« عندي فكرة..»

ـ« تفضل ..»

ـ« لا مانع لدينا من أن تجتمع مع رجالك بشرط ..

ـ« ما هو ؟؟»

أن تأخذ منا تصريحاً مسبقا كل مرة، وأن تسمح بتواجد أحد رجالنا .. في اجتماعتكم، وتتركوه يسجل ملاحظاته دون تدخل .. أتوافق؟؟»

قال الشيخ فيما يشبه الارتياح .. « أوافق..»

وخـرج الـرجـال إلى بيوتهم، وأخـذ الشيخ بعـد أسبوع التصريح الأول، وعند وقت اللقاء لم يحضر أحد..

فتـح الشيخ البحـيرى مصحفـه، وأخذ يقرأ الأيات بصوت يندبه البكاء، كان يشعر أن الصوت يصعد من قلبه، وأن الكلمات تشع نورا، وأن المعاني تتجسد في عقله، وكأنه يرى الجنة والنار، وفرعون وهامان وقارون، ويرى مصارع الطغاة والظالمين . . انه امام شريط طويل من المشاهد والاحداث وحركة التاريخ والحياة، هو إذن ليس وحـده فالله يأخـذ بيده إلى الحقـائق النـورانية، ويملأ قلبه إيمانا ويقينا . . ، وماذا يهمه من شأن الدنيا اذا كان الله معه؟؟ لم يكن متضايقا لما جرى، انه ابتلاء الله الذى يصيب به عباده المؤمنين، فمرحبا بابتلاء الله . . اذ لا شك أنه له في ذلك حكمة قد تخفى عن العيون والبصـائـر، فالمهم هنـا الـرضى، وتذكر كلمات لأحد الاخـوان المنشـدين أثنـاء الحضرة . . كان ذلك الاخ يترنم بشعر شعبي مؤثر يقول:

يا عبد تُبْ وارضىَ
أيام و تتقضًى
انـظر إلى الـروضة . .تلقى حبيب الله . . . نعم:

فهنـاك بالقـرب من الـروضة الشريفة، التي سيزورها الشيخ هذا العام، يرقد خير خلق الله، محمد رسول الله، يرقد بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، ما أعظم ذلك!!

واستـدعى الشيخ أهـل بيته، وأخذ يحدثهم عن الله، وعن القصص الحق، فعـبر العصـور، وخبث الشياطين، وغرور الدنيا وزخـرفهـا، وأخـذ يوصيهم بالاجتهـاد في العبـادة والعمل وحسن الخلق، وقالت زوجه في استغراب:

-« أيمكن أن يساق قائل مثل هذه الكلمات إلى الحبس. . »

-« بنو اسرائيل كانوا يقتلون النبيين . . وقالوا يد الله مغلولة غلّت أيديهم . . سبحان الله . . »

قالت في أسى :

-« قلبي غير مطمئن، لماذا لا نهجر هذه الديار؟؟»

ترنم بآية من القرآن الكريم:

-« ألا بذكر الله تطمئن القلوب» صدق الله العظيم

قالـت :

-« أرض الله واسعة . . »

-« أجـل . . لكنهـا لم تعـد كالأمس البعيد . . نحتاج إلى تأشـيرات دخـول، وتصـاريح إقامة . . وطائرات . . ومصروفات بالعملة الصعبة . . ونحتاج أيضا إلى تأشيرة خروج . . ثم إني باق هنا بأمر الله . . »

قالـت :

-« تفرق الاحباب . . »

-« إنهم هنا . . »

-« كيف ؟؟ »

-« أشعر أن أرواحهم ترف حولي . . وتسمعني . . يا امرأة. . »

-« لكأننا في سجن كبير . . »

ألم أقل ألف مرة . . الدنيا سجن المؤمن . . »

-« لكن . . »

ـ« لكن ماذا يا امرأة؟؟ ادعي الله أن يملأ قلوبنا باليقين . . اليقين خير النعم كما يقول المصطفى . . »

همست الزوجة :

ـ« ألا تشعر بغربة . ؟»

اشرق وجهه بفرحة ملائكية وهتف :

ـ« طوبى للغرباء!!»

ثم شرد الشيخ لحظات، وهام بنظراته الرائقة الممتلئة يقينا وقال:

ـ« رأيتـه أسود السحنة . . يوجه إلى صدرى خنجراً مسموماً . . كانت عيناه تتقدان شرراً . . وأسنان تلمع في جوف الظلام . . وجدت يداً تمتد من الغيب تمسك بيده في آخر لحظة عندما هتفت « مولاي ..علمك بحالي يغني عن سؤالي. .» وحدث ضجيج هائل . . ورأيت الخنجر المسموم ملقى على الأرض . . ورايت العدوان يحترق . . يتكوم كتلة من رماد أسود . . وصحوت من النوم فإذا المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر . . وقلت اللهم اجعله خيرا . . »

ردت زوجه وقلبها يخفق :

ـ« لا تحتاج الرؤيا إلى تفسير . . »

ـ« كان ذلك قبل أن يحدث ما حدث بليلتين . . »

ـ« كانت إنذاراً . . وبشارة . . »

ـ« صدقت يا زوجتي . . في الدرس الأخير كنت أشعر أن هناك من يحصي علينـا تحركـاتنا وكلماتنا . . بل وهمساتنا . . ولما بدأت الأسئلة الغريبة، راودني الشك . . قلت لنفسي، لتكن إرادة الله . . لقد كتب على نفسه الرحمة .

ودمعت عينه، ثم قال :

-« انفض الاحباب، وأقفر المكان، أين الزهور والروائح الزكية، والابتهالات الجماعية، وأغاني الضراعة والدعاء ومديح النبي المختار؟؟ كان الحاضرون يمدونني بالمعاني، فتنثال عليّ الأفكار كالغيث . . وكانت عيونهم المحبة الصادقة تتدفق بالأمل والمحبة . . لا أستطيع أن أعيش وحدي يا امرأة . . لشد ما أعجب لعبّاد الصوامع في البراري والقفار! ! إن حياة الوحدة تشبة الحياة في «ثلاجات العصر» . . تجمد وسكون . . شيء أشبه بالموت . . أتفهمينني؟؟»

وعرف الشيخ بعد ذلك، أن الإخوان لم يحضروا نظراً لأنه تم استدعاؤهم للمباحث العامة، قبل موعد الاجتماع بساعة، وألقيت عليهم بعض التنبيهات أو النصائح للعمل بها، حفاظا على مستقبلهم، ووجد الشيخ أن الأمور أصبحت معقدة لحد كبير، ففكر في الأمر، وأخيراً اهتدى إلى حل وسط، لقد حمل عصاه، وارتدى عباءته، وتوجه شطر مسجد «السيدة زينب»، وهناك وجد الكثير من معاني الاطمئنان والراحة، على الرغم من الضجة التي تثار هناك، كان يجلس في مكان قريب من المنبر، ويصلي ويقرأ القرآن، ويتلو الأوراد، لكن الذي آلمه، أن بعض رواد المسجد كانوا يختطفون يده لتقبيلها، وهو يقاوم بشدة، كما كان بعضهم يأتي ويسقط في حجره بعض المال، فيجري وراءهم ويرد إليهم أموالهم، وينصحهم بتقديمها لبعض الفقراء الذين يعرفونهم، وكان الناس يقصدونه لطلب الدعاء منه، والتماس البركة، لكنه كان يبسم لمن يأتي ويوجه إليه سؤالاً حول الفقه أو السلوك أو التوبة أو الزكاة وما إلى ذلك، وكان يجلس ويجيب عليهم بصوت مسموع، إذا لم يكن في السؤال

أو الاجابة حرج أو خصوصية، وهكذا اتسعت دائرة مجلسه يوماً بعد يوم، وعرف الإخوان القدامى بما حدث، فأخذوا يغدون إليه، ويتحلقون حوله مثلما كان يحدث في الماضي . . وسارت الأمور سيراً حسنا، أثلج قلب الشيخ وقلوب عشاقه، لكن أمراً غريباً قد حدث . . جاءه شيخ المسجد الزينبى ذات مساء وقال:

-« تعلم يا شيخ بحيري أني أخوك . . »

-« بالتأكيد . . »

-« وأني أُجلُّك وأُقدِّرك حق قدرك . . »

-« مفهوم . . »

-« وأن الأمور في هذا البلد تسير بطريقة خاصة . . »

توقفت حركة أنامل الشيخ التي كانت تستخدم المسبحة، ونظر إلى شيخ المسجد نظرة ذات معنى، وقال:

-« هدانا وهداك الله . . ادخل في الموضوع مباشرة فلست بالذي يرهب مواجهة القضاء والقدر . . قل كلمتك . . »

أطرق شيخ المسجد هنيهة، ثم أخذ يشرح للبحيري تعليمات وزارة الأوقاف الخاصة بمنع أية دروس دينية في المساجد إلا من قبل الجهات المختصه، وعدم عقد أية اجتماعات من أي لون، بل إن موضوعات خطب الجمعة والدروس اليومية ترسل إليهم من الوزارة لمجرد التنفيذ، وهذه كلها اجراءات أمن، وتجنباً للتيارات السياسية التي تندس أحيانا بين المصلين وروّاد المساجد، وهو أمر حدث كثيراً في السنوات الماضية، واختتم شيخ المسجد كلامه قائلاً:

-« ولهذا ترى أنني كرجل مسؤول في حيرة من أمري . . »

هز الشيخ البحيري رأسه قائلاً :

ـ« الآن فهمت . . »

ـ« كنت واثقا أنك ستقدر الظروف، وتسامحني . . »

ـ« لا ذنب لك . . »

ومال شيخ المسجد على أذن البحيري قائلاً:

ـ« أنا واثق أنك لن تذيع السر. .إنه أمر من المباحث العامة.. »

وهتف الشيخ في دهشة :

ـ« لماذا ؟؟»

ـ« إنهم متأكدون أنك لست ذا صبغة سياسية . . لكن دروسك ودروس غيرك فن، غير الوعاظ الرسميين، لا تتقيد بتعليمات الوزارة، ومن ثم فإن الكثيرين من أعضاء الجماعات المتطرفة يتخرجون من تحت عباءتكم . . هكذا قالوا . . يعنون أنكم تفتحون الطريق أمامهم . . »

وبعد فترة صمت أخذ شيخ المسجد يتحدث عن الاوضاع الشائكة، والقبضة الحديدية التي تحكم البلد، والعنف في معالجة أمور المعارضة أو النقد، والبطش بما يشتم منه المخالفة، أو الخروج على الميثاق، وعدم احترام أجهزة الأمن لحرمة الدين والعلم، وتقاليد الأسرة ومواصفاتها، وحرية الفكر وكرامته، ثم استطرد في أسف عميق :

ـ« ونحن نخاف على أرزاقنا وعيالنا . . فالمسؤولية خطيرة. . »

تمتم البحيري قائلاً:

ـ« إني أعذرك . . لكن أليس غريباً أن . . »

وأمسك البحيري عن الكلام، لكنه شعر أنه يكتم الحقيقة . . وهو أمر يؤلمه، وينال من إيمانه، وسمع شيخ المسجد يقول :

-« أتشك في إخلاصي لك؟؟»

تنهد . . البحيري، وقال:

-« أردت أن أقول، في بلدنا المسكين، بعض الأفراد يكفرون بالله، ويجاهرون بذلك . . فلا يؤاخذهم أحد . . لكن الذين يعترضون على السلطة نقطع رقابهم.. أو يسجنون.. أو يعذبون . . »

وانفجر شيخ المسجد باكيا عند سماعه لهذه الكلمات، وحاول هو الآخر أن يفعل كما يفعل العامة، فاختطف يد البحيري محاولاً تقبيلها، وهو يقول: «سامحني يا شيخ . . ادع لي يا شيخ» لكن البحيري جذب يده بسرعة وهو يقول:

-« لا تقبل يدي . . فقد قيل إنها السجدة الصغرى. . »

خرج الشيخ البحيري من المسجد هائمًا على وجهه يفكر، كان يشعر أن الدنيا تضيق في عينيه، وأنها تبدو كسجن ملموس، أين يذهب؟؟ « امض في الطريق يا بحيري . . إلى الله، لا تغضب من أحد يا بحيري وادع لهم بالهداية . . واسأل الله العافية يا بحيري فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من العافية . . وعشْ مع النور ينهزم الظلام، وترنم يا بحيري بالحق الأعظم فتفنى خفافيشِ المظالم . . واقهرْ نفسك يا بحيري تنتصر على الشيطان . . وكلْ حلالاً طيباً تزكُ نفسك، ويطهرْ قلبك وقلْ يا رب، ولا تقصد ذا نفوذ أو سلطة ليمنع عنك المطاردة والرقابة . . واقرأ في وجوه الخلق، وصفحات الكون، ولا تجعلْ نفسك أسيرة الكتب وحدها . . وعش عصرك

كطبيب . . وقل مع رابعة العدوية:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غضابُ
ألا ليت ما بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خرابُ
فإن صحّ منك الود فالكل هيّنٌ ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

دَقّ بابه والليل داج، وصمت البيت يوحي بالرضى والهدوء، كانت زوجه تجلس فوق سجادة الصلاة تتلو القرآن، أشرق وجهها بالبسمة حين رأته وقالت:

ـ« حمداً لله . . لماذا غبت عنا؟»

ـ« كنت أسبح في ملكوت الله . . الموج العاتي لا تقوى عليه ذراعاي الواهنتان . . وزمجرة الرياح تصم الآذان . . وأنا أبحث عن زورق أرتاح فيه قليلاً . .»

ـ« كثيراً ما يصعب عليّ فهمك؟؟ أهي رؤيا أخرى غير رؤيا الخنجر المسموم؟؟»

قال لها:

ـ« اختلطت الوقائع بالرؤى، والصدق بالكذب، والأمانة بالخيانة، حتى ضل الخلق، واضطربت المفاهيم، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وأنا أبحث عن مسجد آخر للعبادة فيه . .»

ـ« ماذا جرى؟؟»

ـ« كما يجري كل مرة . .»

ـ« ألم أقل لك الهجرة؟؟»

ـ« لا هجرة بعد الفتح . .»

ـ« وأين الفتح الآن؟؟ إنه الغزو من كل مكان. .»

-« دون الهجرة أهوال وأهوال .. وهذه أرض الله.. »

ثم ابتسم وقال:

-« ألا تعلمين؟؟ أوعز إلّي أحد المخبرين بأن أقدم طلبا للالتحاق بالاتحاد الاشتراكي .. وأفهمني أن ذلك قد يوفر علي الكثير من المتاعب، وإني أستطيع أن أعطي دروساً في مقر الاتحاد كما أشاء .. قلت له أنا من «حزب الله» صاح في دهشة وأخبرني أن هناك فعلاً حزباً بهذا الاسم .. لم أكن أعلم ... »

واستمر الشيخ في الركون إلى بيته، كان يكتفي بالذهاب إلى عمله في الصباح، ثم يتردد على مسجد صغير قريب من منزله يؤدي فيه الصلاة ثم ينصرف على الفور بعد أن يختم الصلاة ..

وفي أحد الأيام جاء إليه حسنين ابو زهرة، كان الوقت ليلاً، والساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً، وقد تعمد حسنين ذلك إذ إنه في مثل هذا الوقت تندر الرقابة، ويأوي المخبرون السريون إلى بيوتهم، وحسنين يعلم أن باب الشيخ يفتح لأول طرقة، كان الشيخ وحيداً يقوم الليل، وإلى جواره المصحف وصحف الصباح، وعدد من الكتب القديمة والحديثه على السواء، وظل حسنين صامتا حتى انتهى الشيخ من صلاته، وتعانقا في ود عميق، شعر حسنين بدفء الصدق والحنان والرباط الوثيق، وتمنى أن يطول ذلك التلاحم البدني والروحي، وتمتم الشيخ بعد أن اتخذ مكانه المعهود:

-« الشوق يا حسنين لا تستطيع أن تعبر عنه الكلمات .. »

-« صدقني يا شيخنا .. أنت أقرب إلّي من أي وقت مضى .. أرى صورتك أمامي في البيت والسجن والمسجد والشارع .. لا أستطيع فراقك.. »

أخذ الشيخ يتلو بعد أن استعاذ وبسمل:

-« وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم . .«صدق الله العظيم»

وأخذ حسنين يحدثه عما جرى له بعد الليلة المشؤومة حينما أخذوهم إلى وزارة الداخلية، وكيف أن مدير السجن استدعاه، وأجرى معه تحقيقا إداريا، وكيف أنه أغلظ له القول، واتهمه بالاستهتار، وبالعبث بالنظم والتقاليد العسكرية، إذ كيف يبيح لنفسه الانضمام لجمعيات دينية، والاشتغال بالسياسية، مع أن المفروض فيه أنه «رجل حكومة» ولا بد أن يتجنب مثل هذه الأمور الشائكة، إن لم يحاربها ويبلغ عنها المسؤولين على الفور، ولم تفلح ردود حسنين وتوضيحاته للمدير، ولم تشفع له حجحجة أو سلامة نيتة، لأن ما تقوله المباحث، لا بد وأن يكون حقا لامراء فيه. وهدده بالطرد من الخدمة أو النقل إلى الصعيد إذا لم يلتزم بالأوامر، ويبتعد عن تلك التجمعات المشبوهة، ولهذا بكى حسنين وقال:

-« وهكذا تراني يا شيخي مضطراً للابتعاد عنك بجسدي لا بروحي . .»

علق الشيخ بجزء من آية قرآنية :

-« إلا مَنْ أُكره وقلبُه مطمئن بالإيمان . .»

وأخذ الشيخ يسأله عن بقية الإخوان، وماذا فُعل بهم، فطمأنه حسنين وأخبره بأنه يلتقي بهم لماماً، وأنهم على العهد سائرون، وبوصاياه ملتزمون، ولله ذاكرون، وسوف يقومون بوداعه إن شاء الله عند سفره إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج.

ولم تتحقق الآمال، فقد علم الشيخ البحيري في آخر لحظة أنه

لن يسافر للحج بسبب «القرعة» التي أخطأته كما قيل له، يومها بكى الشيخ بكاءً مرًا، حتى ليخيل للرائي أنه قد أصيب في عزيز لديه، وأن الكارثة فادحة، والألم عميق، وهو يعلم أن كل شيء مكتوب، ولا مفر من قدر الله، لكن روحه كانت تهفو إلى الأرض الطيبة التي طالما تغنى بها، وإلى بيت الله الحرام الذي تجذبه إليه أشواق عارمة، وأخذ الشيخ يومها يردد أغنيته الشجية وهو يبكي:

يا راحلين إلى «منى» بقيادي شوّقتموا يوم الرحيل فؤادي
سرتم، وسار وليلكم يا وحشتي والشوق أرقني وصوت الحادي
فإذا وصلتم سالمين فبلغوا مني السلام إلى النبي الهادي

استطاعت «انتصار» أن تنقل «جاد الله» إلى قسم جديد من أقسام التزييف ألا وهو طبع العملة الصعبة، الدولار الأمريكي بالذات، إذ أن سوقه أصبحت رائجة في الخفاء، وابتدأ جاد الله يتدرب على الطبع، ثم تحول إلى الترويج أو التوزيع، ومن المعروف أن للتوزيع مجالات خاصة محفوفة بالمخاطر، لكنه كان مندفعاً أشد الاندفاع، كيما ينتهي من سداد التزاماته بالنسبة للمنزل الذي اشتراه، والأرض التي أصبحت في حيازته، ولم تكد تمر بضعة أسابيع قليلة حتى تحقق له ما يريد، لكن هل شبع جاد الله؟؟ لقد تفتحت شهيته للمال أكثر وأكثر، وأخذت تبرق في الأفق مشاريع وآمال جديدة، تداعب خياله في اليقظة والمنام، فهو يريد أن يضع في صندوق التوفير ألف جنية على الأقل باسم كل فرد من أفراد أسرته، ويفكر في افتتاح محل بقالة كبير به تليفون، كما فكر في اقتناء المواشي في القرية، إن الآمال تتسع، والدنيا تقبل عليه بصورة لم يحلم بها من قبل، و «انتصار» ذلك اللغز الغامض تفتح له ذراعيها، وتغرقه في ألوان المتعة والنعيم

ولم يبق أمامه عقبة سوى محفوظ . . إنه يشعر أن محفوظ هو الخطر القادم، فلن يطول بقاؤه في السجن، وهو يخاف أن يكون خروج محفوظ من الحبس بداية لأفول نجمة، وهي قضية شائكة، وتحتاج إلى حسم، فماذا يفعل فيه؟؟ هناك عدة وسائل للقضاء عليه، فليختر واحدة منها، هل يدس له السم في الطعام عن طريق أحد عملائه؟؟ هل يلفق له تهمة أو قضية جديدة، ومن ثم يصدر ضده حكم جديد، ويظل حبيساً؟؟ جاد الله يعتقد أن الموت هو الحل الحاسم، لكن جريمة القتل قد تنكشف فيدخل هو السجن،

وتطير «انتصار» من القفص الذهبي، ويخسر كل شيء، ليت جاد الله يستطيع أن يفاتح أحدخلصائه في هذا الموضوع ليستنير برأيه، لكن جاد الله ليس له أصدقاء مخلصون، ثم إن مسألة كهذه تحتاج إلى تأنٍ وحذر وكتمان شديد . . إن الحيرة تأخذ بتلابيبه، ليت انتصار وافقت على الطلاق من محفوظ إذن لتزوجها جاد الله على الفور، وتكون العقدة الرئيسية قد حلت مبدئيا، لكنها تصر على الارتباط بمحفوظ برغم خيانتها له، بل يبدو أنه يعرف سلوك زوجته، ولا تستفزة الغيرة، أهو اتفاق مسبق بينهما، أن يكون لكل منهما حياته الخاصة، وأن يظل «العمل» أو المنفعة هي التي تربط بينهما إلى الأبد؟؟ ما هذه الأحاجي والألغاز التي لا يستطيع جاد الله فهمها أو تقبلها؟؟

وفي خضم هذه الحيرة القاتلة جاءت إلى السجن أنباء مفاجئة كان لها صدى واسع النطاق، لقد أعلن أنه بمناسبة عيد الثورة تقرر الإفراج عن المسجونين الذين قضوا نصف العقوبة المحكوم عليهم بها، بشرط أن يكونوا حسني السير والسلوك، وألا يشكلوا خطورة على الأمن العام، وهذه الفقرة الأخيرة تعني أن قرار العفو لن يشمل السياسين، وجُنّ جنون جاد الله عندما علم أن محفوظ سيكون من بين المفرج عنهم . . .

إن الأحداث تجري بسرعة رهيبة، تفوق طاقة جاد الله في التفكير والتدبير، وهو لم يتخذ إجراءً حاسمًا حتى الآن بخصوص محفوظ، أيظل واقفاً هكذا يتفرج حتى يخرج محفوظ، وتستقبلة انتصار بالقبلات والأحضان، ثم يغلقان بابهما في وجهه، ويقف هو كالكلب الذليل، يلوك الخواء والعدم، ويعض بنان الحسرة والندم،

ويصبح طريد الجنة التي نعم فيها تلك الأيام الجميلة التي لم ير لها مثيلاً طوال حياته المجدبة؟؟

ذهب إليها والهلع يأخذ بمجامع نفسه، قال:

-« سيخرج محفوظ بعد فترة وجيزة . . »

قالت وهي تضحك كالعهد بها في ميوعة:

-« بشرى خير . . سأكافئك عليها . . »

-« أهكذا ببساطة؟؟»

-« وماذا تريد غير ذلك؟؟»

-« وأنا . . أين أذهب؟؟»

-« لقد استمتعت بما فيه الكفاية يا جاد الله..لا تكن طماعاً.. »

-« استل خنجراً من جيبه، وقال وعيناه تتقدان شرراً:

-« الموت ولا هذا . . »

نظرت إليه، وجدت الإصرار والجنون في عينيه، وأيقنت أنه يستطيع أن يرتكب أية حماقة، إذا ما استحكم اليأس في قلبه، وهي تعلم منذ البداية أنه إنسان غير طبيعي . . وكان عليها أن تتصرف بمنتهى التعقل والدهاء، لهذا تظاهرت بعدم الاكتراث، وقالت وهي تنزع سترتها، وتبرز مفاتنها:

-« هل صدقت أيها الأبله أنه زوجي . . »

وقع الخنجر من يده، ونظر إليها في ذهول، أيمكن أن يكون ما تزعمه صحيحا؟؟ وعاد ليلتقط الخنجر، ثم يهرول نحوها، كانت تصب كأساً من الويسكي، وكانت مدركة تماماً لما يفعل، وبذلت

جهداً كبيراً كي تتماسك وتبدو طبيعية:

-« محفوظ ليس زوجي .. لم أتزوجه قط ..»

-« وما الدليل؟؟»

هزت كتفيها في استهتار وقالت:

-« أتريد البطاقة أم جواز السفر أم ماذا؟؟»

وظل ينظر إليها في حيرة، واستطردت تقول:

-« أنت الرجل الوحيد يا جاد الله الذي أعجبني .. والرجال كالطعام .. أنواع وألوان .. يعجبني فيك تفكيرك، وفي قيامك بالواجبات التي أوكلتها إليك بخصوص العملة، وتعجبني في أشياء أخرى .. أما محفوظ فهو يتفوق عليك في شيء واحد .. إدارة أمور الشركة .. وهو فيما عدا ذلك يرضى بما ألقيه إليه من فتات ..»

أسكرته الكلمات، وفاح عطر يعرفه جيداً، ذلك العطر الذي يذكرة بفحولته وحيوانيته، والوحش الذي يستكن في داخله، احتضنها في عنف، قالت:

-« لا يمكنني الاستغناء عنك يا جاد الله للخطة .. لو هجرتني يا جاد الله فأنا التي ستقتلك .. وهناك الكثيرات من النساء اللاتي يعملن في الشبكة، ويستطيع محفوظ أن يختار واحدة منهن .. أما أنا فقد اخترتك منذ رأيتك لأول مرة .. كنت أرقبك وأنا آتي لزيارة محفوظ .. وأنا أسلمك «الأمانات» لتوصلها إليه .. عندئذ قلت لنفسى هذا هو الرجل الذي تبحثين عنه يا انتصار .. وعلى الفور رسمت الخطة مع الملعون محفوظ .. فكان بيننا بعدها ما كان .. وارتباطنا أبدي لن ينقصم إلا بالموت ..»

قال والفرحة تغمر كيانه كله:

-« ولماذا لا نتزوج؟؟»

-« إن شئت غداً . . »

-« دون تردد ؟؟»

-« ولماذا أتردد؟؟ لقد تحققت كل آمالي فيك، واعطيتك من نفسي كل شيء قبل أن تطلب أي شيء، أليس هذا دليلاً كافيا؟؟»

-« بلى . . »

-« أيها الأحمق، متى تفهم؟؟»

قال وهو يحتضنها بحرارة:

-« الآن فهمت . . »

-« لم تفهم أي شيء . . أتدري لماذا؟؟»

-« لماذا؟؟»

-« لأن الوحش الذى فيك لا ينام أبداً . . »

-« سأحاول أن أكون أفضل، بعد أن نتزوج . . أعدك بذلك»

قالت انتصار في اعتراض مثير:

-« لا . . لا . . لتبق كما أنت!! الخطر كل الخطر أن تتغير»

-« إنك تحيرينني . . »

-« لكن . . أليس حيرة لذيذة؟؟»

امتدت بهما السهرة، وأكلا ما طاب وشربا، كانت الأمور تسير على ما يرام، فقد انتعشت أحوال جاد الله المالية، وتحقق له بعض ما

يريد، وشعر بأن المستقبل أصبح آمنا لحد ما، وتحصل على خبرة لم يكن ليتحصل عليها خاصة وهو يجوب الأسواق، ويوزع العملة، ويشترى ويبيع، ويستخدم مهارته وذكاءه، محتاطاً أشد الاحتياط، ومعتمدا على حسه البوليسي، وعلى ما يسمعه ويراه في عالم الجريمة، وبدا واضحاً أن انتصار قد أنست إليه، وأحسنت استخدامه، حتى توزيع العملة الصعبة، وهو يأتي في الدرجة الأولى من الخطورة، قد أداه جاد الله على أكمل وجه، لكن إغراق السوق بالعملات الزائفة قد لفت نظر رجال المكافحة، فأخذوا يزيدون من نشاطهم في المراقبة، وعلمت انتصار من عملائها في السوق ومن بعض المخبرين الذين جندتهم لحمايتها مقابل مرتبات شهرية، أن وزارة الداخلية منزعجة لهذا الطوفان من التزييف، وأنها بصدد تغيير خططها، وإدخال عناصر جديدة من رجالها، وبات جليا أن «انتصار» يجب أن تغير من أسلوبها، بل الأفضل أن تتوقف مؤقتا عن إصدار عملات جديدة، وأن تنفذ ذلك بكل حزم ودقة، وهي تعرف جيداً متى تتوقف ومتى تبدأ، ولا تنزلق إلى المخاطر والمغامرات الطائشة التي يجرها إليها الجشع، بل إنها اتخذت إجراءً مثيراً كاد جاد الله أن يفقد رشده بسببه.

لقد ذهب إليها كالمعتاد ذات مساء في شقتها المفروشة، وكم كانت دهشته عندما فتح له الباب رجل غريب يبدو في الخمسين من عمره، ويرتدي لباساً عربيا ذا عقال أسود، وغطاءً ذا نقوش زرقاء على رأسه، ومن خلف الرجل امرأة محجبة، وخمسة أو أربعة من الأطفال . .

قال جاد الله في دهشة :

ـ« أليست هذه شقة الست انتصار . . »

ـ« لا أدرى . . ولكننا استأجرنا هذا المسكن أمس . . »

ـ« وأين ذهبت الساكنة السابقة؟؟»

ـ« علم هذا عند الله . . فقد تسلمنا الشقة مفروشة، ولم يكن بها أحـد . . تستطيع أن تسأل صاحبة البيت، وهي إمرأة عجوز تسكن في السطوح . . »

انحنى جاد الله شاكراً، ثم اعتذر للرجل على الإزعاج الذي سببه له، وأخذ يصعد السلم مسرعاً، حتى بلغ السطح وهو يلهث، كان قلبـه يخفـق في حيرة وقـلق، لماذا لم تخبره «انتصـار» بنيتهـا على الانتقال؟؟ وما هو سبب هذا التغير المفاجىء؟؟

أطلت عليه عجوز في الخامسة والسبعين، ضعيفة البصر، منحنية الظهر بيضاء الشعر، مُغَضَّنة الوجه، وقالت دون أن ينطق:

ـ« ليس لدي شقق خالية . . »

قال وهو يحييها في رقة :

ـ« مساء الخير . . أتيت أسأل عن انتصار . . أين أنتقلت؟؟»

قالت وهي تحاول أن تتذكر :

ـ« انتصار؟؟ لا أذكر أحدا بهذا الاسم»

ـ« الساكنة التي رحلت أول أمس..كانت في الدور الأول». »

ـ« لا أعرف . . كانت الشقة باسم رجل . . لعله زوجها . . إن العقد لدي بالداخل . . تعال لتتأكد . . »

هي نفس الشقـة، لكم اسم السـاكن رجـل فعـلاً «فايز إبراهيم

سلامـه» ترى من يكـون فاير إبـراهيم سلامه هذا؟؟ إن أمرك يا انتصـار يزداد غمـوضـا وإبهاما، لكن أين ستذهبين مني؟؟ سوف أفتش عنك القاهرة شبراً شبراً، وملهى ملهى، وسوقاً سوقاً، ولن أكف عن البحث حتى أجدك، ولو كلفني ذلك حياتي . .

-« اتشرب القهوة؟؟»

-« شكراً . . يا أمي . . »

ونزل الدرج متاكسلاً يفكر في عمق، كان يمني نفسه بالأماني في سهرة ممتعة، أصبحت ليالي انتصار من ضروريات حياته، إنه يشعر الآن بالرغبة العارمة في تناولها بين ذراعيه واعتصارها، ويشعر برغبـة جنـونية في الاستـماع إلى صوتها الدافىء، والنظر إلى عينيها الساحرتين، والخوض معها في الحديث الشجي الملتهب، لقد يتقن الآن أنـه لا يمكن أن يعيش بدونها، ولو انسحبت من حياته إلى الأبد لجنّ جنونه، إنها المستقبل والحاضر، والغاية والوسيلة، ومفتاح الأمان لحياته التي حلم بها طويلاً، أعطته كل ما يتمناه،وجسدت له فلسفته، وقدمت له الدليل الأكيد على صحتها، إنصح ما يقال فإن انتصار هي النصف الآخر له، النصف الذي كان يبحث عنه منذ كان، ولـذا فإن بقـاءه بدونها مستحيل، ولـو أصبـح أثرى أثرياء الأرض، فلن يمكنـه العيش بدونها، لكن لماذا فعلت ذلـك دون سابق إنذار؟؟ أيمكن أن تكون قد هربت من خطر متوقع، ولم يكن لديها الوقت الكافي لإخباره بنيتها؟؟ هذا هو الاحتمال الأقوى، إن الإفـلات من الخـطر المفاجىء يقتضي تحركاً سريعاً، لأن البطء مدمـر، والتـأخر ضياع . . وندم جاد الله على تأجيل الزواج لمدة أسبـوع، مع أنها كانت على استعـداد تام للزواج خلال أربعـة

وعشرين ساعـة .. ليته فعل، إن الأمر لم يكن يحتاج إلى انتظار وترتيب ودق قلبه من الرعب فجأة . . .

أيمكن أن يكون محفوظ هو السبب؟؟

تُرى هل غدرت انتصـار، وخـانت العهـد، وانحازت مرة أخرى لمحفـوظ؟؟ لو أن الأمر كذلك، فلن يفلت منه محفوظ هذه المرة، سوف يسحقه سحقا، لسوف يقتله.هذه المرة دون تردد، لو حاول في السابق أن يقضي عليه في السجن، دبر له دس السم في الطعام، لكنه نقل إلى المستشفى ليلة التنفيذ بحجة «حمى مشبهة»، كما أوعز من قبـل لأحـد السجناء كي يفتعل معه معركة ويفتك به ويروح محفوظ ضحية مشاجرة أو ضرب أفضى إلى موت، ولن يكون الحكم على السجين «الفاعل» إلا مدة قصيرة، ثلاث أو أربع سنوات، وما أكثر السجناء الذين يفضلون البقاء في السجن، ويكرهون الإفراج، ويشفقـون على أنفسهم من حياة «الحـرية» في الخارج .. حيث المطاردة .. والجوع .. وارتكاب الأخطار والحماقات، والتعرض للمـوت، والصراعـات الدامية بين العصابات المتناحرة المتنافسة، لكن محفوظ أفلت حينما جاء أمر الإفراج فجأة، نتيجة للعفو عن نصف مدة العقـوبة بمناسبة أعياد الثورة .. وكُتب لمحفوظ عمر جديد .. ولعل جاد الله ارتاح كثيراً لنجاة محفوظ لأن انتصار كانت راغبـة في ذلـك، وتصر عليه .. ترى هل هربت انتصار لتسعد محفوظ بلياليها الحلوة بعد أن عانى في السجن من الحرمان والقهر والكبت . .

كان جاد الله يخرج من نوبة عمله في السجن ليبحث عن انتصار، وأخـذ يجوب شوارع القاهرة وحواريها وأزقتها وملاهيها وحدائقها،

ويعود آخر الليل مرهقاً مكدوداً، خاوي الوفاض، إن الخطأ الذي وقع فيه هو أنه لم يحاول أن يعرف أحداً من الشبكة التي تديرها، كان مكتفيا بها، واثقا فيها، لا يهمه سواها، فهي كل شيء بالنسبة له، لو أن في يده خيطا رفيعا، لاستطاع أن يتتبعه، ويصل إليها، لكنه بعد رحيلها، سقط في فراغ رهيب، يتلفت حوله فلا يجد إلا الضياع والحرمان، حتى الأرض الزراعية التي اشتراها، والبيت الذي أصبح ملكا له، والمدخرات التي يحتفظ بها في بيته، ودفاتر التوفير لأبنائه، كل هذا لم يعوضه عن اختفاء انتصار، إذ ما قيمة أن يكون ثريا أو وحشاً ـ أو حتى حياًـ بدون انتصار؟؟ إن أمامهما معاً طريقاً طويلاً لا بد وأن يسيرا فيها، وأن الذي تحقق مجرد بداية

فوجىء جاد الله في المساء بحسنين أبو زهرة يدخل عليه، لقد سادت بينهما قطيعة تلقائية منذ أسابيع .. وكان جاد الله مرتاحاً لذلك، كان يحب حسنين، لكنه في نفس الوقت يخاف منه، لأن حسنين دائما يتصدى له بديلاً عن ضميره النائم، ويذكره بالخطأ، ويلوح له بعقاب الله، وينذره بسوء المآل، حتى دون كلام، كانت نظرات حسنين ومصمصته بشفتيه أبلغ من أقواله، ولشعور غريب لا يدري جاد الله كنهه استقبل حسنين بغير قليل من الرضى، بعد أن كان ينكر نفسه، ويوحي لميمونة بأن تصرفه .. أما الآن فالأمر يختلف .. ألقى حسنين السلام وجلس صامتا، وأخذ يجيب على ترحيب جاد الله باقتضاب، وترك حسنين الشاي أمامه دون أن يقربه حتى كاد أن يبرد.

ـ« أراك صامتا على غير العادة .. »

هكذا تكلم جاد الله، تنهد حسنين وقال:

ـ« جئت لأطمئن عليك .. »

-« لم تعد تذهب للشيخ البحيري . . »

سدد إليه نظرات ذات معنى وقال:

-« انفض السامر . . وهل الدنيا إلا سوق يزدحم، ثم ينفض؟ »

-« كلماتك يا حسنين تشعرني بالموت . . »

-« وهل أفلت منه إنسان . . »

« لماذا لا نعيش ونسعد وننساه . . »

-« كفى بالموت واعظاً يا جاد الله . . »

وسادت فترة صمت قال حسنين بعدها:

-« عندما يموت الإنسان، لا تكون لديه أدنى قدره لتغيير أي شيء مما جرى في حياته . . جفت الأقلام وطويت الصحف . . »

شعر جاد الله كأنه يختنق، تتابعت أنفاسه في ضيق، وقال في توتر:

-« اشرب الشاي يا حسنين. . »

-« في الماء غنى عنه . . »

-« لكنه ينعش الدماغ، وينشط الجسم، و . . »

قاطعة حسنين قائلاً:

-« الرسول وأصحابه أقاموا الدنيا وأقعدوها دون قهوة أو شاي أو سجائر . . »

-« تتحدث بلغة البحيري . . »

-« البحيري متربع في قلبي . . لأني أحبه . . »

شرد جاد الله لحظات وقال:

-« صدقت إن من يحب إنسانا، يجده دائماً متربعاً في قلبه»

-« هل جربت ذلك يا جاد الله ؟؟»

-« نعم .. لكن ليس البحيري على أي حال .. »

-« هذا من سوء حظك .. »

ودخلت ميمونة وهي تحمل كوباً من الماء وتقول:

-« هل سمعتم ما جرى ؟؟ لقد دخل اللصوص مسكن الجاويش عوضين، وسرقوا الراديو وذَهَبَ امرأته والمال الذي ادخروه .. وزوجة عوضين تصرخ مستغيثة .. ولا أثر للجناة .. »

قال جاد الله ساخراً:

-« لسوف يذهب إليه حسنين ويخفف عنه ببعض المواعظ عن الصبر، والرضى بقضاء الله وقدره، أليس كذلك يا حسنين؟؟»

نظر إليه حسنين في ألم وقال:

-« لماذا أبلغت عن الرجل الطيب ؟؟»

أمسك جاد الله بزنده في تشنج وقال:

-« ماذا تقصد ؟؟»

-« البحيري .. والمباحث العامة .. »

-« إن بعض الظن إثم يا حسنين .. »

-« لقد واجهونا بأقوالك وتقاريرك .. »

-« كاذبون .. »

-« لقد تأكدنا .. »

-« مستحيل، لأن المباحث لا تكشف عن مصادر معلوماتها أبداً. »

-« مجرد كلام . . »

قال جاد الله في حدة :

-« لم أفعل . . »

-« حسابك عند من يعلم الخفايا والخبايا يا جاد الله . . لكنك وقعت في خطيئة كبرى حينما عاديت «رجال الله» دون سبب . . قد تسرق . . أو تسكر . . أو تكذب . . لكن الإفتراء على الأطهار الأتقياء الأبرياء كبيرة من الكبائر. إنك تريد أن تطفىء نور الله. . »

اهتز جسد جاد الله من وقع الكلمات، شعر أنها تنفذ إلى قلبة فقطعته، وإلى ضميره النائم فتوقظه، وإلى استهتاره فتصفعه، وإلى غفلته ليفيق، وجاد الله يريد أن يظل سادراً في دنياه الخاصة، لا يعكر صفوه ناصح، ولا يوقظه مخلص، ولا يغير مساره أحد، لقد فعل جاد الله ما فعل ضد الشيخ البحيري في لحظة من لحظات الاندفاع والتهور، قد تكون نزوة طارئة، وربما أراد أن يثبت إخلاصه لدى المسؤولين، فيدعم مركزه، ويجد لظهره سنداً يأوي إليه عند الضرورة، أو لعل ذلك يهيىء له الفرصة لترقية جديدة يسبق بها زملاءه، لكنه لا يجد المبرر أمام حسنين الآن، ولذلك فالإنكار هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يتصدى به لاتهام حسنين الجارح المؤلم

-« تعلم يا حسنين إن المخبرين يزحمون المجالس والطرقات . . »

-« لكنهم لا يتعرضون للبحيري وأمثاله . . »

-« أنت واهم . . كل الطوائف الدينية . . حتى رجال الموالد وفرق الصوفية لهم ملفات في المباحث العامة، وتحت المراقبة . . إلزم بيتك يا حسنين . . »

-« ولماذا لا تفعل ذلك؟؟»

-« أنا أسعى على رزقي . . ولا أترك بيتي إلا لذلك . . »

-« أتريد أن أفعل مثلك؟؟»

التفت إليه جاد الله في دهشة :

-« وهل أفعل ما يشين؟؟»

لم يعلق حسنين بكلمة، وبقي صامتا بعض الوقت، ثم فاجأ جاد الله بقوله :

-« أنا أبحث عن شقة لفريد ابني . . إنه هو الآخر يريد أن يتزوج . . »

افـتر ثغر جاد الله عن ابتسامة واسعة، ودقّ قلبه من الفرح، لقد أصبح من أصحاب العمارات، والناس يجرون وراءه طلباً لاستئجار شقة، حتى حسنين جاء، لكنه قبل أن يطلب الشقة أخذ يحدثه عن الموت والدنيا الفانية.

-« وأين تجد شقة الآن؟؟ أصبح ذلك من رابع المستحيلات كما يقولون . . »

رد حسنين في حزم :

-« في بيتك الذي اشتريته . . »

قهقه جاد الله، ثم أشار إلى عياله قائلاً :

-« وهؤلاء؟؟ أين يسكنون عندما يكبرون؟؟»

-« أنت ترفض . . »

-« بل أعتذر لسبب وجيه . . »

-« هذا شأنك يا جاد الله، لم أكن أفكر في أن أفاتحك في أمر

كهذا لأني أعرفك .. لكن أم فريد ألحت عليّ ..»

واستأذن حسنين على الفور وخرج، كان جاد الله يحس بمشاعر جديدة عليه تماماً، إنه يملك، والناس في حاجة إليه، يستطيع أن يعطي ويمنع، لكنه صمم ألا يعطي، لسوف يؤجر الشقق مفروشة، سوف تدر عليه دخلاً خمسة أضعاف مرتبه، فكيف يضحي بذلك لإرضاء قريب أو صديق ؟؟ ليذهب الجميع إلى جهنم .. فالدنيا مصالح، وهو أحق بالنفع من غيره وعادت صورة «انتصار» تلح من جديد .. الوجه الهارب الذي يطارده صباح مساء، ولا يتركه يهدأ أو يستريح ...

## - ١٧ -

عاد محفوظ إلى حياة الحرية وهو أشد ما يكون شوقاً إليها، إنه يسير في الشارع ينظر يمينا ويساراً متفحصاً وجه القاهرة الجذاب الجميل، ويشق طريقه في الشوارع المزدحمة دون أن يعبأ بها حوله من بشر يملؤون الطرقات، لكنه يشعر أن قيوداً خفية لم تزل تحد من حركته ونشاطه، إن سنوات السجن الطويلة تجعله يتحرك بحساب، وينقل خطاه بحذر، ويتأدب في الحديث والحوار، ويبالغ في الاعتذار، كأن الناس جميعاً من حوله هم السادة وهو العبد الذليل، لكي يعيش في السجن بدون مشاكل كان عليه أن يتنازل عن كبريائه، وينسى جبروته، ويخفض جناح الذل والمسكنة، لم يكن ضعيفا، لكنه تظاهر بالضعف، ولم يكن جباناً، لكنه أخفى شجاعته، فالقوي في السجن لا بد أن يذوق الأمرين حتى يتهاوى ويستسلم، والشجاع تُكال له اللطمات والنكسات كيما يرضخ، كان حريصاً على أن ينجو من السجن بجلده، حتى يعيش ويحقق ما يحلم به من آمال، ولهذا استخدم كل حيلة، ولجأ إلى أي وسيلة، حتى يحوز ثقة «جاد الله» مسؤول العنبر، وحتى يحقق لنفسه الاحترام بين السجناء، أليس هو وسيلتهم للاتصال بالخارج وتهريب الممنوعات؟؟ كان يتزلف لجاد الله لكن المسجونين كانوا بدورهم يتزلفون له، ويلجؤون إليه في المشاكل والملمات، ويؤدون له ما يريد، لأن محفوظ أهم لديهم من جاد الله، والسجن مهما كان الأمر فترة عابرة، ولذا فإن حياتهم مع جاد الله مؤقتة، لكن علاقاتهم مع محفوظ قد تمتد من السجن إلى خارجه، ولذلك ذهل محفوظ حينما جاءه أحد السجناء ليقول له:

-« جاد الله ينوي بك شراً. . »

ـ« كيف ؟؟»

ـ« إنه يتآمر عليك، ويريد قتلك . . نحن في حيرة، لماذا يفعل ذلك والجميع يعرفون أنك مساعده الأمين . . »

ولم يضيع محفوظ وقتا، إنه وحده هو الذي يعلم دوافع الجريمة التي يريد جاد الله أن يرتكبها، ومن المعروف أن جاد الله أحمق . . وحش ضارٍ . . لا يردعه ضمير، تاريخه في السجون وفي الخدمة العسكرية، بل وفي عزبة الباشا يؤكد ذلك، محفوظ يفهم أن جاد الله يريد أن يقضي عليه، حتى تصبح انتصار له وحده، وحتى يحتل مكانة بارزة في شبكة التزييف، وجاد الله حقود يريد أن يستولي على كل شيء، ثم إنه يخاف ذكاء محفوظ وتفكيره المرتب وصموده، والواقع أن انتصار قد حذرت محفوظ في الفترة الأخيرة من غدر جاد الله، الذي أصبح يتصرف بما يشبه الجنون، ولذلك فإن محفوظ سارع بابتلاع كمية من الشطة السوداني مع الحلوى الطحينية، وهي طريقة مجربة بين السجناء لرفع درجة حرارة الجسم، والإصابة بما يشبه الحمى، وهكذا نقل محفوظ إلى مستشفى السجن للعلاج بعيداً عن جاد الله، والمعروف أن مستشفى السجن لها نظام خاص في إدارتها وطعامها وشرابها، فالسجانة الذين يشتغلون فيها من الممرضين المدربين، ولها سور خاص وباب حديدي مغلق لا يدخله إلا من له عمل، واطمأن محفوظ إلى حد كبير داخل جدران المستشفى، ونام على سرير، وحرص على أن يعد طعامه بنفسه، ولو على نفقته الخاصة حتى لا يدس له أحد السم فيه، واتصل بانتصار وأبلغها أن «تتفاهم» مع طبيب السجن، كي يبقيه بالمستشفى أطول فترة ممكنة حتى يتصرف، ولو أدى ذلك إلى أن تدفع مبلغاً كبيراً من المال . .

وشاء الله أن يصدر العفو عن نصف المدة، ويخرج محفوظ سليمًا دون أن تطاله يد جاد الله، وارتبك جاد الله أشد الارتباك حينما باء مخططه بالفشل، بل كاد يُجنّ عندما ذهب إلى مسكن إنتصار فوجدها قد رحلت، إن تزامن الإفراج عن محفوظ مع اختفاء انتصار، قد زرع في قلبه يقينا أنه قد يصبح عن قريب خارج اللعبة، وتتبخر الآمال الكبار التي كان يحلم بها، إذن فقد كان على حق حينما توجس خيفة من منافسة محفوظ له، ومحفوظ لديه ميزات تتعلق بوسامته وثقافته وبراعته في المجاملة والتعامل والحديث الجذاب، وصمم جاد الله أن يبحث عن انتصار وعن محفوظ . . صحيح أن الدنيا واسعة . . لكنها أحيانا تضيق، وتبدو كرقعة الشطرنج، لن ييأس جاد الله أو يمل . .

حينما التقى محفوظ بانتصار في مسكنها الجديد، في مكان منعزل بمنطقة «نزلة السمان» بشّت لمقدمه سعيده نشطة، وهتفت في حرارة يعرفها محفوظ جيداً:

-« مرحبا بسيد الرجال . . »

-« لا تبالغي . . »

-« لقد أنقذت حياتي، وضحيت بنفسك من أجلي، فكيف أنسى ذلك؟؟

تذكر محفوظ عشية قبضوا عليه متلبساً بالأوراق المالية المزيفة، والضغوط الرهيبة التي تعرض لها حتى يعترف على أفراد الشبكة، لقد ضربوه ضرباً موجعاً حتى أغمى عليه، وتركوه جائعاً بدون طعام، ظامئا بدون ماء، عارياً في عز البرد بدون ثياب، وفي حبس انفرادي، لكنه صمد، حتى مرّ التحقيق بسلام، وظن المحققون أنه

كان يعمل في التزييف بنفسه ولنفسه وأنه ليس لديه شركاء، ولم يجدوا مناصاً من إثبات اعترافه، على الرغم من الشكوك التي راودتهم» وطوال المحاكمة والحجز، كان محفوظ يجد المال الذي يريد، والمحامي الذي يدافع عنه، والسجان الذي يحضر له الممنوعات، لقد وفت انتصار بالتزاماتها نحوه.وظلت تفعل أي شيء .. أي شيء حتى تحافظ عليه، وتحقق له الراحة إلى أن خرج ..

قالت انتصار:

-« وهل أنسى أنك كنت تنام في السجن على السعف والبلاط البارد، وأنا أتقلب على سرير لين ناعم؟؟ لا أكتمك .. كنت على استعداد أن أشتري حياتي بأي ثمن يا محفوظ .. إن ليلة واحدة في السجن كفيلة بأن تقضي عليّ. فكيف أنسى فضلك وشهامتك.. »

تناول الكأس من يدها، ودفع بما فيه في جوفه وهو يقول:

-« لشد ما ينغصني هذا المخلوق القذر!!»

فهمت ما يرمي إليه، واستبد بها القلق حينما رأت الحزن يكسو ملامحه الصارمة، لكنها مسحت على شعره في رقة وقالت:

-« كان كل شيء من أجلك!!»

شرد هامساً:

-« قال لي إن زوجك جميلة وممتعة .. الليلة معها تساوي مليون جنيه .. قالها بوقاحة .. يومها ضحكت والألم يعصر قلبي .. أعرف أنك لست لي زوجة .. لكني رجل .. إني أعجب كيف قبلت أن .. »

وطوّح بالكأس الزجاجية فاصطدمت بالحائط وتناثرت شظايا ..

-« أعرف أننا نحتقر المبادىء والأخلاق .. لكن الكلاب تغار

.. شكله مقزز .. رائحته تزكم الأنوف .. ماذا أقول؟؟»

قالت وقد طفرت الدموع من عينيها:

ـ« قل ما شئت .. فقد كنت مستعدة لأن أفعل المستحيل، من أجلك .. وأن أتى أي تصرف مهما كان بشعاً حتى تعود ..»

كوّر يده وضرب بها على المنضدة في عنف وهتف:

ـ« أي شيء .. إلا هذا ..»

ـ« لعلي أخطأت يا محفوظ ..»

وأخذت تجفف دموعها وتقول:

ـ« أنت الذي أرسلته إلّي .. وأنت الذي أشرت بأن يعمل معنا .. كان يهمنا أن نحقق ما نريد بأية وسيلة .. لم تكن كذلك من قبل يا محفوظ .. لشد ما تغيرت ..»

وصبت له كأساً أخرى، وقدمت بعض الطعام وقالت:

ـ« ومن الأفضل أن ننسى ..»

ـ« لا أستطيع .. كان هناك ألف طريقة وطريقة ..»

كتب علينا الخطأ .. ولا أمل سوى أن نبدأ من جديد ..»

جفف عرقه وقال:

ـ« هذه المرة لا بد أن نتزوج ..»

كانت عبارته مفاجأة تامة بالنسبة لها، لقد رفض ذلك العرض مراراً منذ سنوات، واتفقا أن يسير كل منهما في حياته الخاصة حسبما يهوى دون أن ينتقد أو يعاتب الآخر، وكانا يعتقدان أن حياة الخطر التي يعيشانها لا تسمح لهما بالزواج والاستقرار وإنجاب الذرية، والتهديد سيف مسلط على رقابهما في كل وقت، ولا نجاة منه، فما الذي جعله

يغير رأيه؟؟ جاد الله؟؟ مستحيل، فهو يعلم أن علاقاتها متنوعة، ولم يغضبه ذلك في يوم من الأيام، كان يكتفي بأن تكون تحت رغبته إذا دعاها . .

ـ« قلت يا محفوظ إنني مدينة بحياتي لك . . وسوف أنفذ ما تطلبه مني دون تردد . . »

وبدا على وجهه شيء من الارتياح وتمتم:

ـ« هذا ما توقعته . . »

ـ« أو كنت تظن أمراً غير هذا؟؟ تعرف كم أحبك!!»

عاد إليه القلق وقال:

ـ« لكن ذلك الكلب سيظل ينبح وينبح . . ويطاردنا . . »

ـ« لن نعدم وسيلة للتخلص منه . . »

قال محفوظ :

ـ« هذا الصنف من الناس دواؤه اعدامه . . »

قالت وهي تعاود الربت على شعره:

ـ« نستطيع أن نتخلص منه بأسلوب آخر . . أنت ذكي والقتل يلجأ إليه صغار العقول . . إنه في ظاهره حاسم ونهائي . . لكنه في الحقيقة قد يكون بداية النهاية . . استمع اليّ ولا تفعل ذلك . . يجب أن نتفق قبل أي إجراء . . مصيرنا واحد . . ومن حقي أن يكون لي رأي . . »

قال محفوظ في حدة :

ـ« جاد الله لن يرضى بأقل مما كان يأخذ . . التنازل ليس من طبعه . . عاشرته سنوات . . »

ـ« دع الأمر الآن . . ولنمرح ونسعد . . »

وتزوج محفوظ من انتصار، وبدا واضحاً أنها سعيدة لذلك الإجراء المفاجىء، شعرت كأنها يمامة عاشقة تفيء إلى عش دافىء هادىء . . وسافرا إلى الاسكندريه لقضاء شهر العسل، وفي أيام المتعة والاسترخاء، كانت تتمنى أن تبقى هكذا حتى آخر العمر، إن معهما ما يكفيهما من المال لسنوات، وهما لا يخافان المستقبل على الأقل لفترة ليست بالقصيرة، قالت انتصار وهي تجلس إلى جواره في شرفة فندق من الدرجة الثالثة وكان الوقت ظهراً، والنسيم بارداً :

ـ« أتدري فيما أفكر الآن؟؟»

ـ« فيم ؟؟»

قالت كالحالمة :

ـ« الأمان . . والأطفال . . »

قهقة قائلاً:

ـ« وأفكارك القديمة الراسخة . . »

ـ« ليس هناك شيء ثابت في هذه الدنيا المتعبة . . »

أردف قائلاً في مرح :

ـ« يموت الزمّار وأصبعه يلعب . . لقد فسد العالم ونحن جزء منه . . »

التفتت إليه وقالت تصدق :

ـ« التجارة كنز لا يفنى . . »

قال ساخراً:

ـ« وجاد الله ؟؟»

بادلته سخرية بسخرية وقالت:

ـ« سوف يحمل الرسالة من بعدنا . . إنه كفء . . نستطيع أن نبيع له ماكينة الطباعة والاكليشيهات . . وسيفرح بذلك أشد الفرح، ويتركنا إلى الأبد . . وينسى ثأره منك . . »

قال محفوظ باسماً:

ـ« ويكثر معه المال . . ويركب المرسيدس . . ويسرع بها فوق سفح الجبل . . في اتجاه القمة . . ثم يهوي بها في القاع قطعا متناثرة . »

وغمزت بعينها في دهاء :

ـ« وقد تكون هذه هي الطريقة الصحيحة للتخلص منه . . »

نظر إليها بإعجاب :

ـ« بنت جنيّة . . »

ـ« العفو يا أستاذي . . »

★ ★ ★

عادا إلى القاهرة بعد فترة، كانت الإذاعة تذيع الخطابات السياسية الملتهبة، والشعارات الصارخة، والأناشيد الحماسية، وكانت الصحف تصدر بالألوان الحمراء والسوداء حاملة عناوين بارزة عن المعركة القادمة، وعن قواتنا التي لا تهزم، وعن طائراتنا التي تحمي سماء الشرق الأوسط، وعن إسرائيل المذعورة، وعن تعليقات في أوربا وروسيا وأمريكا، وتوقعات عن نهاية إسرائيل الحتمية، قال محفوظ :

ـ« الظاهر إن الحكومة ستحارب . . »

قالت انتصار دون اكتراث :

-« وما شأننا نحن . . »

-« إنها بلدنا يا انتصار . . »

-« وماذا لنا فيها؟؟ الذل والإهانة . . »

-« كلامك معناة الخيانة . . »

-« أيكون خائنا من يقول الحق يا محفوظ . . »

شرد محفوظ بضع لحظات، كان يتمتم: « في السجن رأيت شبابا يمـوتـون دون خوف، يلعنـون الظلم والفساد، وهم يجلدون . . شباب في عمر الزهور يا انتصار . . كاد جسدي يقشعر وهم يهتفون «الله أكبر» على الرغم من أني لا أصلي . . كثيراً ما سألت نفسي: أين العدو؟؟ حتى المخلصون في بلدنا لا يعرفون الطريق الصحيح . . هم مغـرورون ويعتقدون أن كل ما يفعلونه صحيح . . وأن الناس لا تفهم . . »

قالت انتصار وهي تتثاء ب:

-« معركتهم مع اسرائيل. .أما نحن فمعركتنا مع جاد الله. . »

ثم قطعت حديثها فجأة وقالت:

-« نسيت أن أسألك، هل أحضرت مجلة الشبكة؟؟»

-« وكيف أنسى؟؟ إنها تحت الوسادة. . »

-« اقرأ أنت أخبار الحرب، وأنا أقرأ أخبار الفن . . »

قال وهو يطوقها بذراعه: «أموت في الفن . . »

- ١٨ -

لم يدخر جاد الله وسعاً في البحث عن انتصار وعن محفوظ، ورأى بعد فترة أن العثور على محفوظ يعني تكليل مسعاه بالنجاح، سأل المسجونين، وبحث في أقسام التحريات بالشرطة، وظل يتجول هنا وهناك، بعد أن أخذ إجازة ليتفرغ تماماً لهذا العمل، إن الآمال التي في قلب جاد الله كبيرة جداً، وهو لم يحقق منها إلا القليل حسبما يعتقد، وشهيته مفتوحة لمزيد من المال والمشروعات، وهو واثق أن انتصار سوف تكون له مهما كان الأمر، ولن يترك أي وسيلة، مهما كانت، للوصول إلى هدفه؛ لكن الأيام علمته أن يكون حذراً حكيما، وأن يخفف من غضبة وحنقة، ويعتصم بالصبر والكياسة، حتى يمسك ببغيته. وأدرك أن العنف والشراسة والتهور لا تحل أية مشكلة، هناك أسلوب الدهاء والسياسة، وإذا لم يكن يروق له هذا الأسلوب، فإن عليه أن يدرب نفسه عليه ما أمكن، عليه أن يراوغ كثعلب وينقض كذئب، ويلتهم كأسد جائع .. لكن متى؟؟ عندما تحين اللحظة المناسبة، وعلية أن يعالج الأمر مرحليا، وبالتدريج يمكنه أن ينال كل ما يريد أو أغلب ما يريد . . .

عندما التقى بمحفوظ في إحدى المقاهي الشعبية قال جاد الله:

ـ« أهكذا تخون العيش والملح؟؟»

قال محفوظ وهو يضع ساقاً على ساق، ويرفع هامته في اعتزاز وثقة، وابتسامة شاحبة على ثغره:

ـ« كنت أعرف أنك قادم. . وانتظرتك»

ـ« أنت ؟؟»

ـ« نعم يا جاد الله . . لقد كنت أعرف تحركاتك ونشاطك . .

لكن ثق أني لا أخونك . . في السجن يا جاد الله يبالغ الإنسان في تقدير الخدمات الجليلة . . والسجين يظل مدينا طوال حياته بمن واساه في محنته . . »

قال جاد الله وقد اطمأن قليلاً:

-« فلم التهرب مني إذن؟؟»

-« كنت في شهر العسل بالاسكندرية . . »

قاسه جاد الله بنظرات قلقة، وهتف وقلبه يدق، وأنفاسه تتلاحق في انفعال، وكأنه شعر بوقوع كارثة :

-« تزوجت أخيراً..وبسرعة؟؟ لكني كنت أعتقد أنك متزوج.. »

-« نعم . . . لكن الحقيقة غير ذلك . . أنت تعلم . . »

قال جاد الله :

-« ومن صاحبة الحظ السعيد . . »

قال محفوظ وهو يجذب نفسا من سيجارته وبهدوء عاصف :

-« انتصار . . »

كاد يتهاوى من فوق مقعده، زاغت عيناه، عجز تماماً عن التعليق الفوري، انداح في فكره المشتعل معنىً حبيس «أيها الكلب النجس، بين عشية وضحاها تحولت إلى أسد . . أنت تتلذذ بهزيمتي وعذابي . . » وشعر بدوار وظل غارقا في صمته لم ينطق بكلمة واحدة، وجاء صوت محفوظ الساخر:

-« ألا تقول مبروك ؟؟»

قال والجبين النحاسي يتفصد عرقاً:

-« ألف مبروك »

نظر محفوظ في شك، وتساءل:

ـ« من قلبك ؟؟»

ـ« بالتأكيد . . »

تلفت محفوظ يمنة ويسره، وبعد أن اطمأن لما حوله، همس:

ـ« هذا الكيس الملقى بيننا فية ثلاثة آلاف دولار . . تعرف أن الدولار ارتفعت أسعاره هذه الأيام . . »

فهم جاد الله ما يقصده محفوظ على التو، لقد أصبح محفوظ هو الزعيم أو المعلم الكبير، واختفت انتصار عن الساحة، كان من قبل يتلقى الأوامر مع الكأس والنشوة، واليوم تلقى إليه التعليمات جافة مجردة، كأوامر الضباط للعساكر، أصبح العالم في نظر جاد الله كالثكنة العسكرية . . أية حياة تعسة!! آه . . ذهبت انتصار وبقي المال . . والذل، عموماً لا بأس، قد يستغني مؤقتاً عن انتصار، لكنه لا يمكن أن يستغني عن المال، لأنه الوسيلة الوحيدة الممكنة لتحقيق أحلامه، ولقهر خصومة . .

تناول جاد الله الكيس الصغير، ووضعه تحت إبطه وهو يرتدي الزي الرسمي وقال في اقتضاب:

ـ« ليلتك سعيدة . . »

قال محفوظ في هدوء:

ـ« انتظر . . »

نظر إليه جاد الله في تشوف وقال:

ـ« أهناك أوامر أخرى يا سعادة البك؟»

ضحك محفوظ قائلاً:

ـ« نحن إخوة . . »

وجذب نفساً آخر من السيجارة، ثم استطرد:

ـ« هذه آخر دفعة . . »

سقط جاد الله على الكرسي، وهو ينظر شارداً مذهولا إلى محفوظ، وتمتم وقلبه يخفق بشدة مرة أخرى:

ـ« ماذا؟؟ هل انتهى كل شيء؟؟»

قهقه محفوظ وقال:

ـ« لو كان الأمر كذلك لما اعطيتك هذا الكيس . . »

ـ« لا أفهم شيئا على الإطلاق . . »

قال محفوظ، وهو يدوس بقية السيجارة المحترقة بحذائه الأسود اللامع :

ـ« سوف نعيد إليك الماكينة . . »

داخل جاد الله ارتياح كبير، وحمد الله في سره وقال:

ـ« هكذا ؟؟»

ـ« نعم . . »

ـ« وما السبب؟؟»

ـ« مجرد تغيير في الخطة . . ونحن نثق بك مائة في المائة. . »

ووجد جاد الله أن في هذا الإجراء الجديد مدعاة لمزيد من الكسب السريع، وتخلص من القبضة القوية التي يطوقون بها حركته، وسوف تكون أمامه فرصة لمزيد من الإنتاج، وإخفاء بعض الأوراق المالية ليوزعها لحسابه الخاص، لقد أصبح الآن خبيراً في الطباعة وفي التوزيع أيضا، ومما لا شك فيه أن محفوظ خائف، وخاصة أنه لم

يخرج من السجن إلا منذ أيام قليلة، وقد تراقبه جهات الشرطة، فضلاً عن أنه لم يزل عريساً جديداً، وهو في حاجة إلى الراحة . . وإلى . . الاستمتاع أيضا . . وابتسم محفوظ وهو يقول:

ـ« لقد أصبحت مركزا مستقلا . . إنتاج وتوزيع . . لكن حذار أن تجند أحداً لمساعدتك دون أخذ رأينا . . هذه أمور حساسة ودقيقة، ولا نسمح لأحد بأن يدخل إلى عالمنا الخاص إلا بعد التأكد والحرص الشديد . . »

قال جاد الله وهو يجفف عرقه :

ـ« أفهم . . لكن . . »

ـ« ماذا تريد أن تقول؟؟»

ـ« لا بد أن أقوم بواجب المجاملة . . أنت أخونا وانتصار أيضا لها فضل كبير علينا . . »

ضحك محفوظ وقال:

ـ« مبادرة طيبة منك. . وستفرح انتصار كثيراً لذلك . . وهي في الواقع قد قررت أن تعد مأدبة دسمة تليق بالمقام، وفي وقت قريب، وأفضل شخصيا أن يكون ذلك بعد أن تنتهي من مهمتك هذه .وطبعا تعلم أن نصيبك من هذه «العملية» خمسين بالمائة . »

ابتسم جاد الله وهو يضع الكيس بإحكام تحت إبطه:

ـ« ليس بين الخيرين حساب . . »

وقال محفوظ وهو يصافحه مودعاً:

ـ« لا تركب الترام أو الأوتوبيس . . »

ومشى جاد الله . . .

الغراب خطف منه انتصار. . شعر أنه تنازل عن قلبه، ومضى بلا قلب، بدت الشوارع أمام عينيه خرابا وسواداً مثل يوم حريق القاهرة تماماً منذ سنوات مضت . . طردوه من الجنة . . كانت أيامه معهـا حسبـما يشعـر كالحلم الرائع الجميل . . كل الأيام الجميلة تفلت من بين أصابعه هكذا فجأة، وبدون سابق إنذار، لكأنما كتب عليه أن يظل محروماً لاهثا ظامئا جائعاً . . إنه لا يرتوي أو يشبع أبداً . . إنه يدرك للمرةالأولى أن المال وحده لا يسعده،يالفلسفتة المتقلبة الغريبة!! أحيانا يبدو كطفل يريد أن يستحوذ على شيء وبأية وسيلة، وأحيانـا أخـرى يبـدو حكيما عاقـلاً متزنا، وقد يندفع في تصرفات رعناء هوجاء، وقد يتصرف في روية وأناة، العالم من حوله ألغاز متراكمة، وهو الآخر لغز . .

عندما دلف إلى بيته قالت ميمونة:

-« أعددت لك الملوخية والأرانب و . . . »

قاطعها قائلاً:

-« لست جائعاً. . »

قالت في خبث ساذج :

-« هذه ليلة الجمعة يا رجل . . »

سدد إليها نظرات حانقة، وتراءت أمام خياله صورة انتصار الأمل الضائع، والوجه الغجري، اللذة والنشوة والجنون، وصرخ في ضيق:

-« اغربي عن وجهي . . »

-« خير . . اللهم اجعله خيراً . . »

وهمت بالانصراف، لكنها توقفت فجأة، واستدركت قائلة:

-« هل علمت؟؟ لقد نقلوا الأمباشي حسنين إلى سجن « قرة ميدان»

رفع إليها وجهاً مستغرباً وقال:

-« لم أسمع بذلك في السجن»

-« الجميع يتحدثون عن ذلك في العزبة .. إنه لم يستلم الخطاب بعد، لكنهم يؤكدون ..»

-« لماذا ؟؟»

-« لا أدري .. أنت الذي تعرف .. وعلى العموم فإن سجن مصر أفضل من هنا بكثير .. شيء لله يا سيدة زينب ..»

تحسس كيس الأوراق المالية، ثم ضمه إليه في حنان وقال:

-« كلها سجون .. ربنا يتوب علينا ..»

قالت ميمونة والتأثر باد على وجهها:

-« كان رجلاً طيبا .. يصلح بين الناس، ويجامل الجميع، ولا يتأخر عن خدمة أحد .. لقد خسرناه..»

قال دون اكتراث:

-« الطيب لنفسه .. والسيء لنفسه..»

-« لقد انفتح له قلبي ..»

-« لأنك عبيطة مثل أمك تماماً ..»

-« عبيط من يقول الحق؟؟حسبتك ستحزن من أجل فراقه..»

جلس على السرير بعينين متعبتين، كان يراقب الأولاد دون اهتمام، ويتابع صور التليفزيون من غير تركيز، الرئيس يخطب والجماهير تهتف وتصفق، والضوضاء تصم الأذان، والمذيع يعلق ويردد

الشعارات . . والرئيس يرفع صوته المؤثر العميق . . ويبدو كعملاق أسطوري لا يُهزم . . وجاد الله لا يستطيع المتابعة أو التركيز، لكن تتسلل إلى سمعه كلمات يسمعها جيداً . . الصهيونية . . الأمبرياليه . . الـرجعية . . الثـورة المضادة . . حقوق العمال والفلاحين . . الحرية . . الكرامة . . الوحدة . . الاشتراكية . . الديموقراطية . . الاقطاع . . وجاءت ميمونة مرة أخرى وهي تحمل الطعام وقالت :

-« سلاطة . . تأكل أصابعك وراها . . »

ابتسم للمرة الأولى منذ أن دخل . . وقال:

-« سلاطــة . . كوســة . . ملوخية . . أرانب . . ما هذا «العك» يا امرأة؟؟ . . لا مانع . . هات الأكل . . »

وتجمع هو وأولاده حول الـطعـام الشهي، وأخذوا يأكلون معا في صمت، وضوضاء التليفزيون تتعالى، وأخذ ينظر إلى وجه أطفاله، لقد بدت على وجوههم أمارات الصحة والسعادة، منذ أن تحسن مستوى الغذاء في المنزل، وارتاح لهذه الملاحظة وقال في مرح :

-« كلوا . . واملأوا بطونكم . . وادعوا للرئيس . . »

★ ★ ★

لم يمر يوم الجمعة التالي إلا وكان جاد الله قد وفى بالتزاماته، ووزع ما معه من أوراق مالية مزيفة، وعاد في المساء متأخراً يحمل حصيلة العملية النـاجحـة، كانت السعادة تغمر كيانه، إن النقود الحقيقية تجعـل متعته في القمة، وتدخل الاطمئنان إلى قلبه، فهو خائف - برغم شجاعته - إذا كان يحمل العملة الزائفة، ويتلفت يمنة ويسرة، ويظل على حالة قاسية من التوتر والتوجس إلى أن ينجز مهمته، فإذا فعـل ذلك، تنهد في ارتياح بالغ، وفاضت نفسه بالسعادة التي لا حدود لها، لكن آماله الكبار تظل تدفعه دفعاً لأن يبقى بين الخوف

والـرجـاء، والتوتر والاطمئنان، يتأرجح كالبندول بين هذا وذاك، وبرغم العناء الذي يكابده، فإنه لا يريد أن يضع له حداً أبداً، ولا يبدو أن لطموحاته نهاية . .

وحدث ما لم يكن يتوقعه أبداً . .

لقد وجد انتصار بلحمها ودمها تدخل إلى بيته في مساء السبت بعد العاشرة، وقف في مواجهتها كالأبله لا يدري ماذا يفعل، ثم انطلق يرحب ويلقي بالكلمات مبعثرة بلا معنى محدد، وطلب من زوجه أن تأخذ عيالها وتذهب إلى غرفة أخرى . .

قالت في اقتضاب:

-« أحضرت الماكينة وهي في السيارة بالخارج . . »

قال:

-« ولماذا لم يحضرها محفوظ . . »

-« مجرد الحذر . . »

قال غامزاً:

-« تريدين الحفاظ عليه وعدم تعريضه للخطر . . »

قالت بحزم :

-« إنه زوجي . . ولا مجال لأي قول آخر . . »

-« تخونين العهد . . »

قالت والقلق يساورها:

-« هناك أمور كثيرة من الصعب فهمها . . »

-« أقسم أني لم أفهمك قط . . »

أشارت بيدها صوب الباب قائلة:

-« الماكينة أولا . . والجو أمان . . »

هرول إلى الخـــارج، ساعـده سائق السياره، ووضعت في مكـانها

السابق، وما أن اطمأن إلى كل شيء، وأغلق عليها الباب، عاد إلى حجرته مسرعاً . . ولم يجد غير ميمونة

-« أين ذهبت ؟؟»

هزت ميمونة كتفيها في غيظ فطري وقالت:

-« خرجت . . »

هرول نحو الباب، ونظر فاذا بالسيارة تنطلق مخلفة غباراً وضوضاء عاد ليبحث في جيبة عن قطعة من الأفيون . .

- ١٩ -

دارت الماكينة، وأفرزت من الأوراق الملونة، ذات الرائحة المميزة فوق طاقتها، وكان جاد الله يقضي النهار عاملاً في السجن وهو شبه نائم، ويقضي الليل منكبا على الانتاج، واستبدت به حالة من الجنون الجشع، ولم يغفل عن محفوظ وانتصار، كان يحمل اليهما نصيبهما إن صح التعبير بعد أن يغير الزائف بالصحيح، وأصبحت حصته كبيرة، وبدا الذبول والشحوب على وجهه، كما قلل من التفكير في انتصار التي لم يعد له فيها أمل على الأقل في تلك الفترة، وفي أتون ذلك العمل الدائب المرهق نسي حسنين والبحيري والسجن، نسي كل من حوله، ووجد في عالمه الخاص غنى عن كل شيء، ولم تكن ميمونة من الغباء بحيث لا تدرك خطورة ما يفعله زوجها منذ البداية، وكانت تتوجس خيفة مما يجري في بيتها، وتصاب بالذهول وهي ترى رجلها يرمي الأوراق المالية الكثيرة في نهم بالغ، وعيناه ترمقان هذا الفيض الهائل من المال، وهمست ذات مرة في شيء غير قليل من الخوف:

-« لو أبلغوا عنك لضعنا . . »

-« من يفعل ذلك يا بلهاء، هذا سر لا يعرفه أحد . . »

-« الحيطان لها آذان والماكينة تدق . . »

قال لها وهو شارد:

-« عندما نشبع فسنهيل التراب على كل شيء . . ونعيش في أمان . . »

-« لن تشبع أبداً يا جاد الله . . »

-« العاقل يا ميمونة من يعرف متى يبدأ، ومتى يتوقف . . »

تنهدت في حسرة:

-« الخوف لا يتركنا في الرخاء وفي الشدة . . »

-« والخائف يا ميمونة يبقى في آخر الصف . . »

أمسكت بيده وقالت:

-« ومتى ينتهي ذلك العذاب؟؟ أنت رجل حكومة . . »

-« رجـل حكومة . . نعم . . وهذا هو الستار الذي أختفي وراءه . . والبلد الآن في هرج ومرج . . ألا تسمعين أغاني الحرب . . ليس في مصر الآن من يفكر في رجل تافه مثل جاد الله . . وهذه فرصة لا تعوض . . إنهم مشغولون بالحرب والسياسة . . »

ثم رفع يديه إلى السماء وهتف ضارعاً:

-« اللهم احفظها نعمة، وأدمها طوارىء يا رب . . »

★★★

طوال هذه الفترة كان محفوظ يحقق الفكرة التي أشارت بها انتصار، لقد ذهب إلى الاسكندرية، ودفع خلواً كبيراً لاستئجار محل بقالة، كما اشترى ثلاث سيارات أجرة (تاكسي) يشغلها لحسابه، واستأجر شقة صغيرة للسكن واختارت انتصار لها الأثاث المناسب، وانتقلت فعـلًا إليهـا، وبدؤوا حياتهم الجديدة، وقرروا مبدئيا التوقف عن عملية تزييف العملة، ولم يكن جاد الله الغارق في دنياه الخاصة على علم بما جرى، كان يلتقي بمحفوظ في موعد محدد في مكان يتفقون عليه، ويتسلم منه نصيبه أو حصته من المال دون مناقشة، وهذا ما أراح جاد الله، إذ استطاع أن يغالط في الحساب، ويوزع لحسابه ما شاء، مرتاحاً لهذه الثقة المطلقة التي أولاه إياها محفوظ .

وبرغم نذر الحرب التي تنطلق هنا وهناك، والحشود العسكرية على الحدود بين مصر وإسرائيل، والتعبئة العامة التي أعلنت، رغم كل هذا كان جاد الله لا يفكر إلا في الطبع والتوزيع والامتلاك، ومن

خلال الممارسة اليومية استطاع أن يرشو ويهادن ويتنازل، وأصبح عميلاً مأمونا قويا موثوقا به في السوق، لم يعد في حاجة لأحد، وفكر جديا في قطع صلتـه بمحفوظ، كما فكر في نقل الماكينة إلى مكان جديد لا يعرفه أحد، وفي آخر مرة التقى فيها بمحفوظ قال له:

ـ« من الأفضـل يا جاد الله ألا نلتقي إلا كل شهـر . . . واللقاءات الأسبوعية لا ضرورة لها . . ونحن نفكر الآن في أن نبيع الماكينة عندما نستطيع تدبير ثمنها . . »

طرب جاد الله للفكرة وهتف:

ـ« وإن بيننا ميثاق شرف . . »

ـ« وأنت وفي يا جاد الله . . »

ـ« وأنا لا أستغني عنكم . . »

ـ« ونحن كذلك . . »

ـ« هل أفهم أنكم ستنفصلون ؟؟»

ـ« على الأقل حتى تستقر الأمور . . ويتحدد مصير الحرب، وتنتهي حالة الطوارىء . . »

سدد إليه جاد الله نظرات نافذة وقال:

ـ« هل اشتريتم ماكينة جديدة . . »

ابتسم محفوظ وقال:

ـ« الصبي يتحول إلى معلم . . والمعلم الصغير يصبح كبيراً . . هذا يحدث دائمًا في مثل هذه الحالات . . ونحن نحاول أن نرضى بالواقع، ونساير الزمن، ونسبق الحوادث . . »

ـ« وباقي الشبكة . . »

ـ« لم تعد هناك شبكة بالمعنى الصحيح . . إن سياستنا تختلف عن سياسـة الحكـومة، فعندما يبلغ «أبناؤنا» سن الرشد نسلمهم

الأمـانـة، ونجعلهم يعتمـدون على أنفسهم .. نحن ديمقراطيين
وذهب كل إلى حال سبيله .

سافـر محفـوظ الى الاسكنـدرية، ويـدأ يوثق علاقاته برجال الميناء والجمارك، ويشارك في بعض الصفقات المتعلقة بالسيارات المستوردة ومواد البناء وبعض السلع الأخرى، واكتشف أن عالمه الجديد كفيل بأن يدر عليه دخـلاً كبـيراً، وأنـه أكثر أمناً وأماناً، وخاصة عندما أصبحت انتصار حاملاً، وبدت عليها أعراض البدانة، وأصبحت أشد رغبة في البقاء في مسكنها، وعافت الخروج والسهر والعبث.

وأصبح جاد الله هو الآخر حراً، بعد أن تحرر من سلطان الآخرين، ودفع ثمن الماكينة . . .

ولم يكد يمر شهر واحد، حتى فوجىء محفوظ بأحد رجاله القدامى يأتي إليه في فزع ويقول:

ـ« قبضوا على جاد الله . . »

اضطجع محفوظ على كرسيه، وقد بدا عليه ما يشبه المفاجأة، وقال وهو يفرك أصابعه في شيء من التوتر:

ـ« هذا ما توقعته ؟؟»

ـ« وأنت ؟؟

ـ« لا صلة لي به من زمن . . »

ـ« كنا نقدم له بعض المواد . . كان يتعامل معنا . . »

ـ« هذا شأنكم . . تعرف أنني تركت العمل منذ زمن . . كان السجن درساً قاسيا لا أريد أن يتكرر . . وقد أصبحت مشبوهاً . . أو كما يقولون ورقة احترقت . . »

ـ« فقط أردت رأيك كصديق ذي خبرة قديمة . .
ماذا نفعل؟؟» فكر محفوظ قليلاً وقال:

ـ« ليس هناك ما يدينكم . . أنتم تعرفون ما يجب عمله في مثل هذه الأحوال، لا تتركوا وراءكم أثر لشيء . . غيروا مساكنكم . . وأوقفوا نشاطكم . . فقد يعترف بعلاقته بكم . . أما إذا أغلق فمه، وكان رجلاً، وفعل مثلما فعلت أنا . . فسوف تتكفلون بشؤون بيته، وتساعدونه في قضيته الشائكة ولا شيء غير ذلك . . »

★★★

كان للقبض على «جاد الله» دوي هائل في أرجاء «ليمان طره»، دقّ المدير كفاً بكف وهتف: « من يتصور ؟؟ ياله من ملعون!»، وأخذ رفاقه من السجانة يروون القصص عن الملايين الخرافية التي جمعها من وراء التزييف، والعزب والبيوت التي اشتراها، وكان المسجونون الذين يعرفونه يضحكون في شماتة، ويحاولون دراسة القضية وتحليلها، وأكثر من واحد أكدوا أن وراء تلك الحادثة المفاجئة السجين السابق «محفوظ» المزيف الشهير، وتقاطر النسوة ـ في عزبة السجانة ـ إلى بيته يواسين زوجته وأولاده، وكانت ميمونة تشق ثيابها، وتلطم خدودها، وتلطخ وجهها بالطين، وأصابها ما يشبه الخرس حينما دهم رجال البوليس بيتها، ومعهم زوجها في يده القيود، وقاموا بالتفتيش، وعثروا على الماكينة والأدوات والمواد المستخدمة في التزييف، كما وجدوا مبلغاً كبيراً من العملات الصحيحة والزائفة أيضاً وهي من نفس النوع الذي وجدوه في حوزته عند القبض عليه .

كان جاد الله زائغ النظرات ، منكس الرأس، في عينيه دمعتان تأبيان أن تنحدرا، وشحوب الموتى يكسو وجهه المكتئب . . ولم يكن يستمع إلى الكلمات والتعليقات التي تتناثر حوله :

ربنا معك يا جاد الله . .

شدة وتزول يا جاد الله . .
سنوكل لك أكبر محامي في البلد . .

كان جاد الله لا يلتقط من بين الأصوات العديدة إلا صوت «ميمونة» وهي تصرخ وتولول، ولم يكن يرى الوجوه إلا وجوه الأطفال الأربعة وهم يبكون في رعب، وكانت ابنته «شادية» بينهم تنظر في بلاهة وضياع.

وتمتم جاد الله بينه وبين نفسه قائلاً: «تغدى بي محفوظ قبل أن اتعشى به . . والله لأجرن رجله في القضية . . آه . . ولن أترك له انتصار . . وليكملوا شهر العسل في السجن . . اللعنة على الجميع . . وتم فرض الحراسة على كل ما يمتلكه جاد الله وزوجه وأولاده، وبالغ الناس كثيراً في ثروته، وجعلوا منها شيئا خرافيا . .

وأثناء تحقيق النيابة جاء حسنين أبو زهرة متلهفا دامعاً، ووجهه يتصبب عرقاً، لقدسمع بالخبر، فلم يتوان عن الذهاب، على الرغم من تحذير الأصدقاء والإدارة له بعدم الاتصال به في هذه الأوقات الحرجة، وانتظره حتى خرج من غرفة التحقيق، وتلقفه باكيا بين ذراعيه، وهتف:

-« هذا قضاء الله يا جاد الله . . لا ملجأ من الله إلا إليه . . »

دارت الكلمات في رأس جاد الله المتعب المكدود، الذي لم ينم طوال الليل، وعلى الرغم من تشوش أفكاره، وانهياره جسديا ومعنويا، إلا أن كلمات حسنين نفذت إلى أعماقه، فلأول مرة يدرك جاد الله أنه وحده، وأن الملجأ الوحيد هو الله . . لكن متى؟؟ في وقت متأخر جدا، وبعد أن نفذ القضاء، ويعجب جاد الله كيف لم يفهم ذلك من قبل، وفي الحياة كل يوم ألف حادثة وحادثة تؤكد ذلك، وفي السجون عشرات الألوف من القضايا الدالة على صدق

ما قاله حسنين . . لم ينطق بكلمة . . قال حسنين وهو يجري وراءه، ورجـــال الشرطـــة يجرونـــه جرّاً:

ـ« اطمئن على عيالك يا جاد الله . . إنهم أبنائى . . هم لا ذنب لهم . . »

والتفت جاد الله إلى حسنين عندما كان يصعد إلى سيارة المقبوض عليهم الكالحة الكئيبة:

ـ« سوف آتي إليك يا حسنين في سجن القاهرة سجينا بعد أن كنت إلى جوارك سجّانا . . »

ثم انفجر باكيا بصوت عالٍ . . كان كامرأة تنوح وتولول.

★ ★ ★

في المساء قصد حسنين بيت شيخه، كان الرجال قد تحلقوا حوله من جديد، بعـد أن اقتنعت المبـاحث تماماً بسلامة مقصدهم، حيث توسط أهـل الخير بين الطرفين، وعادت الأمسيات الشجية حيث الذكر والدعاء وقراءة القرآن والدروس الندية المؤثرة، وبعد السلام وتبادل التحيات، قال حسنين في ألم :

ـ« قبضوا عليه متلبسا يا شيخنا . . »

ـ« من ؟؟»

ـ« جاد الله . . »

فكر الشيخ قليلاً، ثم هز رأسه وقال:

ـ« غلبتك على خطيئتك . . »

ـ« سالت دموعه كالبحر . . وكان الندم يتجسد على وجهه . . »

ـ« ادعوا له . . واجمعوا قروشاً لأولاده . . فليرحمه الله . . »

وأخذ الشيخ يحدثهم عن شروط التوبة، وضرورة الندم، والعزم على

عدم إتيـان المعـاصي، ورد الحقوق لأصحابها، وأخبرهم كيف أن الرسول أوصى بالاستغفار، لأنه ﷺ كان يتوب إلى الله كل يوم مائة مرة، وشرح لهم أن أمر المؤمن كله خير، لأنه إن أصابته ضرّاء صبر، وإن أصابته سرّاء شكر، وقال أحد الجالسين:

-« بدأت الحرب يا شيخنا . . »

قال الشيخ في ثقة :

-« وهل توقفت الحرب لتبدأ؟؟ في كل يوم تسيل الدماء، وتزهق الأرواح والنـار لا تنطفىء أبداً . . ولهذا فإن الجهاد فريضة أبدية والذين يخافون الموت حمقى، أي أبنائي الخلصاء . . لا تتقاعسوا عن الخروج في سبيل الله إن استطعتم . . وقدموا ما تقدرون عليه، واجعلوا خروجكم خالصاً لوجهه وحده . . »

ثم أخذ يترنم بصوته العذب الحنون، ويتمايل مع مقاطع اللحن في وقار وذوبان :

قلوب العاشقين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرون
وألسنة بأسرار تنادي ... تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمينا
رجال طلّقوا الدنيا ثلاثاً ... وعن فعل المعاصي تائبونا

أظلمت القـاهـرة، وانـطلقت صفـارات الإنذار، وصُمت الآذان لانطلاق الطائرات في الأجواء الرحيبة، والمذياع يبعث طلقات من الكلمات والشعـارات والبيانـات العسكـرية، والأرض تكاد تميد، ومؤشرات المـذياع تنتقـل من موجـة إلى أخـرى، وأخبـار بشتى اللهجات واللغات، وأقوال متضاربة متناقضة، لا يمكن أن تفرز من خلالها وجه الحقيقة، والشيخ البحيري ورجاله يستمعون بقلوب خافقة . . .

قال الشيخ :

-« ستبيتون هنا الليلة . . هذا أمر لا مفر منه ولنقض الوقت في قيام الليل . . ولنضرع إلى الله بقلوب نقية، لعله يكشف الغمة، ويحفظ الملة، ويقهر العدو، وينصر الحق «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . . ولتكن هذه ليلتنا الأخيرة . . فمن استطاع منكم أن يلتحق بالدفاع المدنى أو يتطوع مع الفدائيين . . أو يقدم شيئاً من ماله أو نفسه أو ولده فليفعل . . فالجهاد اليوم فرض على كل مسلم . . واعلموا أن الجهاد عبادة . . وانسوا ما حاق بكم من مظالم . . فهذا يوم النقاء واللقاء والفداء . . أثابكم الله . . »

لمعت في ظلام الحبس بارقة أمل واهنة لجاد الله، فقد شبت الحرب، واندلع لهيبها، وانشغل الناس بها كل الانشغال، حتى النيابة ورجال الشرطة، وقدر جاد الله أنه في مثل هذا الجو المضطرب الرهيب، قد تعفو الحكومة عن السجناء والموقوفين، وتعفو عن الجرائم التي حدثت في تلك الفترة بالذات، إنه كالغريق يتعلق بقشة، واشتداد الأزمة، مع اليأس من انفراجها قد يوحي بآمال وأفكار خيالية كتلك التي تفرزها عقول الأطفال . .

-« سامحنى يا بك . . »

-« المسامح ربنا يا جاد الله . . »

-« أنا وقعت من السماء وأنت تلقيتني . . في عرضك . . »

-« أنت رجل شرطة وتعرف يا جاد الله . . »

-« لحظة ضعف يا سعادة وكيل النيابة . . »

-« القضية معقدة . . وأنت ذو خبرة يا إمباشي . . »

-« لعنة الله على محفوظ وانتصار . . هما ورطاني . . »

-« لقد بعثنا في استدعائهما . . إنهما لا يعيشان هنا . . »

-« غير معقول . . »

-« في الاسكندرية منذ زمن . . »

دمعت عينا جاد الله وقال :

-« لو أفرجتم عني، لذهبت فوراً إلى الجبهة لمحاربة إسرائيل . . سأكون سعيداً لومت هناك . . أنا أفضل الموت على الدخول إلى السجن سجيناً . . بعد أن كنت . . آه يا مصيبتك يا جاد الله . . »

مشى بخــطىً مرتعشــة، نظر حواليه في ميدان سجن مصر الـواسع، إنه سوف يدلف لأول مرة إلى الداخل كسجين . . «يا حسرتي»!! سوف ينـظر إليه رفـاق الأمس بعـين كلهـا الاحتقار، وسيعجبون من رجل النظام والقانون الذي احتقر النظام والقانون، وسيغلق عليه باب الزنزانة، ويختلط بالسجناء ويصبح واحداً منهم، لقـد صدر أمـر النيابـة بتجديد حبسه على ذمة التحقيق، وتوقف مرتبـه، ووضعت كل ممتلكـاتـه تحت التحفظ، وإذا أدين فسوف تستولي الحكومة على كل ما يملك «يا حسرتي!» . . وخرج محفوظ كالشعرة من العجين، لم يستطع جاد الله أن يقيم عليه الدليل، أو يقدم شهوداً على اشتراكه في الجريمة، أما انتصار فقد كانت واثقة من نفسها تماماً، وادعت أنها استخدمت جاد الله السجان كناقل لرسـائلهـا الشفـوية إلى خطيبها محفوظ في السجن، ولا شيء غير ذلـك، وحـاول جاد الله أن يستشهد بزوجته ميمونة، فلم تقتنع النيابة . . وخرجت انتصار هي الأخرى في صحبة زوجها، وذراعها في ذراعه، وبقي جاد الله حبيساً وجميع القرائن تشهد بإدانته، حتى المحامي الذي أتوا به للدفاع عنه، لم يخفِ أن المتهم وضعه سيىء للغاية . . « يا حسرتي!!» حاول جاد الله أن يسترحم، وأن يذكر ماضيه في السجن الحـربي، وخـدمتـه الطويلة للحكومة، وتأديبه للسياسيين المعارضين المارقين، وتعاونه مع أجهزة أمن الدولة، فلم يكترث وكيل النيابة لكلامه، وجنّ جنونه، وصرخ في وجه الوكيل قائلاً:

-« لست المجرم الوحيد في البلد . . »

حينما دخل جاد الله السجن، كان جبينه ينضح عرقاً، تجمع

حوله رفاقه السجانة، قال أحدهم:

-« أهكذا تضيّع نفسك وعيالك . . »

لم يسعفه منطقه بكلمة واحدة، وهو اللسن الثرثار المتفلسف، وقدم نحوه ضابط حديث التخرج، ونظر إليه شذراً وقال:

-« أنت جاد الله . . الله يخيبك!! فضحتنا . . »

واقترب منه سجين معتاد الاجرام (سوابق)، تردد على مختلف سجون الجمهورية، وقال هامساً في سخرية:

-« شرفت الديار يا جميل . . »

أمروه بخلع ملابسه الأصلية، وأعطوه ملابس السجن، وفتشوه بدقة لم يصبح على جسده سوى السروال والسترة وقميص بلا أكمام، ملابس ليس فيها جيب، إنها أشبه ما تكون بالكفن، دخل السجن مجرداً من كل شيء إلا ما يستر جسده، هكذا ولد، وهكذا يموت . . سمحوا له بحذائه الأسود . . أخذ يجر هيكله المتهالك جرّاً . . وذهب إلى عنبر ج، حيث المحجوزون تحت التحقيق في الدور الأول، عندما وقف على باب العنبر وجد أمامه الأومباشي حسنين في يده المفتاح الكبير، والصفارة معلقة في رقبته، والمسبحة في يده . . . وتمتم حسنين والدموع تتأرجح في عينيه:

-« ادخل يا جاد الله . . وعد ومكتوب . . »

ثم غمغم: «يا مقلب القلوب والأبصار، ثبت قلوبنا على دينك . . » ويمضي جاد الله كأنه في حلم، الظلام في روحه وقلبه ورأسه، برغم ضوء النهار الباهر، والذكريات تتزاحم في رأسه، طالب الطب الذي قتله ذات يوم في السجن الحربي، وارتمى ينتفض وينزف كحمامة بيضاء بريئة، المتأله الصغير الذي يهتف «أنا جاد الله، وحش

السجون الحربية»، والسوط الأسود في يده، يطوحه كيف شاء، ويضرب به في قوة، ويدمي الأجساد العارية .. الكأس وامرأة جميلة مشتعلة الجسد، رزم الأوراق المالية، وعقود الملكية .. وليالي الانطلاق والآمال .. « عجيب يا زمن .. »، لقد كتب عليه الشقاء حتى في أوج استمتاعه، كان جائعاً دائمًا، ظامئاً دائمًا، شعور عميق بالفقر يستولي عليه، وهو يحوز آلاف الجنيهات ..

ووضعه حسنين في زنزانة انفرادية ليس فيها أحد، أعطاه طعاماً وسجائر، واساه بكلمات حزينة كأنها قصيدة رثاء، ملأ له جردل الماء، وأعطاه دلواً للتبول، «وبرشاً» جديداً، وبطانية سميكة، وهمس :

-« سوف أحضر لك الطعام يا جاد الله .. »

-« ليس بي أدنى رغبة للأكل .. »

سمع «جاد الله» الناس يتحدثون عن انسحاب الجيش من خط الدفاع الأول إلى خط الدفاع الثاني، وتمكنت إسرائيل من ضرب طائراتنا الجاثمة على الأرض، وتبعثر قواتنا في صحراء سينا، وشاهد كيف يتكلم السجانة والسجناء في حزن، كما سمع هرجاً ومرجاً، وفهم أن المسجونين السياسيين من الإخوان المسلمين الموجودين في الدور الثالث، يطالبون بالسماح لهم بالتطوع والانضمام للمحاربين، لم يكترث جاد الله لما يجري حوله، كانت مصيبته الكبيرة تشغله عما عداها، شعر بضيق في تنفسه، اقترب من باب الزنزانة، كان الباب عبارة عن قضبان رأسية يقطعها قضبان أفقية قليلة، بحيث يرى الواقف أمام الزنزانة كل ما بداخلها .. أمسك «جاد الله» بالقضبان بيد متصلبة، وأخذ يشهق ويزفر بصعوبة، إنه يكاد يختنق، سمع صوتا من الدور الثالث ينادي :

-« أية خدمة يا سى جاد الله ؟؟»

نظر إلى أعلى، إنه أحد الإخوان الذين كانوا في سجن طره، وقد قدم لسجن مصر للعلاج . . لم يرد، لوح بيده شاكراً في توتر . . إنهم في كل مكان . .

وقضى جاد الله يومـين لا يأكل ولا ينام، أخذ يتأوه بصوت مكتوم في البداية، ثم أخذ تأوهه يعلو تدريجيا، حتى أصبح مسموعاً في كل أنحاء العنبر، أطل السجناء أثناء الليل عبر القضبان يشهدون جاد الله وهـو يعـوي كذئب جريح داهمـه داء الكلب، وكـانـوا يمصمصون وهم يسمعون عواءه، ويرون تحركاته الحبيـسة خلف القضبان، وبعضهم ينادي «الصبر يا جاد الله . . لقد أفلت الزمام من يده، وترك نفسه على سجيتها تعبر عن أساها وأحزانها، وأخذ يضرب رأسه في الحائط، ويدق الأرض بقدميه، ويضرب على صدره كثكلى فقدت وحيدها، لم يعد يخجل أو يستحي من إظهار ضياعه ويأسه . . وبرغم كلمات المواساة التي تتناثر وراء أذنية، إلا أنه يشعر أنه وحده . . لا أحد معه . . تخلى عنه أهل الأرض والسماء، حاول «خفـير الليل» - السجان الليلي - أن يتحدث معه، ويخفف عنه، لكن جاد الله لم يعره اهتماماً، بل ظل على هذيانه وعوائه وذهول نظراته التعسة . .

في الصباح جاءه حسنين وقال في حزم:

-« أفق يا جاد الله ماذا بك؟؟»

-« بي ما تحمله الجبال . . »

-« الله هو مفرج الكروب يا رجل . . »

-« ضعت . . وانتهى الأمر . . »

-« اصبر . . وابدأ من جديد . . »

-« هذا زمان اليأس يا حسنين . . »

وأخذ يصرخ من جديد، واستدعي طبيب السجن لرؤيته، وأعطاه مسكنا قويا، ومحاليل طبية عن طريق الوريد، لتعوض نقص الغذاء، وتخفف من انهياره . . ونام . .

في اليوم التالي فتح حسنين باب زنزانتة، ودعاه للخروج كي يجلس معه في الدور الرابع، يشرَب الشاي، ويتسلى حتى يألف الوضع الجديد، وينسى، لا بد أن يندمج مع خلق الله، ويتقبل الكارثة التي حلت به، حتى تتضح الأمور، وإدانته لن تكون نهاية العالم، إن أمامه فرصة لبداية جديدة، ولا يصح أن يستسلم لليأس التام، ووافق جاد الله، وأخذ يتجول في أنحاء العنبر على استحياء، كان يشعر أن العيون تلاحقه من كل صوب، وكان يشعر أن الحياة لم تعد لها قيمة، وأقلقه وضع ميمونة والأطفال، بعد أن تم التحفظ على ما يمتلكه من مال وعقار وأرض، «والملعون محفوظ يمرح ويسعد في الاسكندرية، آه . . وانتصار هي الأخرى توقفت في الوقت المناسب، ونامت قي أحضان الاطمئنان والرخاء والتجارة، ورمت لي بالماكينة الصدئة بعد أن استنفدت أغراضها، وبقيت أنا بلا شيء . . »، ثم أخذ يستعيد اللحظة القاتلة عندما أمسكوا به في شارع «الشواربي» متلبساً . . شعر وقتها أن العملاء خانوه، وأن الشرطة أوقعت به، وأن المصائب تكاثرت عليه، لم يجد منفذا للهرب، كان كل شيء مرتبا، لكأن جاد الله هو المجرم الوحيد، والمزيف الوحيد، في عالم اليوم . . أي ظلم يجتاح هذه الحياة . . إن لم يجن فسوف يموت من الحسرة . . لم يعد يطيق أن يرى أحدا أو يسمع أحداً، وليس لديه صبر لأن يتابع الذهاب إلى المحكمة من

يوم لآخر، ويقف في القفص .. وينظر الحكم ...

سمعهم يقولون أن الهزيمة حلّت،وإسرائيل بلغت شاطىء قناة السويس، والرئيس «تنحى» .. والمظاهرات تملأ الشوارع .. وجنودنا عادوا متورمي الأقدام، محطمي النفوس، وخلق كثير دفنوا في رمال الصحراء .. فكر جاد الله سريعاً فيما سمع .. لم يكن يعنيه الأمر كثيراً، إذ أن مأساته قد ملأت عقله وقلبه .. أخذ يتجول في الطرقات بجوار السياج الحديدي الذي يمتد بطول السجن وعرضه، على بعد متر من أبواب الزنازين .. سمع صوتاً ينادي من أسفل ..

ـ« أغلقوا الأبواب .. ايراد جديد ..»

كان جاد الله قد صعد إلى الدور الرابع يتجول في الممشى ..

قال حسنين في رقة :

ـ« انزل يا جاد الله إلى زنزانتك .. يبدو إن هناك دفعة .. كبيرة قد اعتقلت من رجال السياسة والحرب .. أو لعلهم أسرى من اليهود ..»

غمغم جاد الله في حزن :

ـ« أسرى؟؟ نحن الأسرى ..»

نظر جاد الله إلى أسفل، رأى القاع السحيق للعنبر يلمع نظيفا، والعساكر يروحون ويجيئون، جاءه خاطر .. وهو ـ كالعادة ـ سريع الاقتناع وسريع التنفيذ .. ما دام الموت هو النهاية، فلم الانتظار؟؟؟ واشتعلت رأسه بخاطر جنوني لم يلحظه أحد، ولم يتوقعه أحد، ووثب من فوق السياج ..

وسقط جاد الله ...

في لحظات، كان ملقى في القاع، وسط بركة من الدماء، بعد أن تحطمت رأسه، وتهشم جسده . .

وتعالى الصياح . . واهتزت أروقة السجن . . وانطلقت صفارات السجانة . . وهرب المسجونون إلى جحورهم . .

وفي اليوم التالي جرى تحقيق سريع . .

وحفظت القضيتان . .

قضية التزييف . .

وقضية انتحار جاد الله . . »

وجوزي الأومباشي حسنين بخمسة أيام خصمًا من مرتبه، لسماحه لمحجوز تحت التحقيق، بالصعود من الدور الأرضي إلى الدور الرابع . . وكانت مصر كلها في مأتم كبير . .

ودفن جاد الله في مقابر الصدقة . . .

ـ تمت ـ

# كتب للمؤلف

روايات

١ – الطريق الطويل
٢ – في الظلام
٣ – عذراء القرية
٤ – اليوم الموعود
٥ – رأس الشيطان
٦ – الربيع العاصف
٧ – النداء الخالد
٨ – الذين يحترقون
٩ – أرض الأنبياء
١٠ – طلائع الفجر
١١ – ليل الخطايا
١٢ – ليل العبيد
١٣ – ابتسامة في قلب شيطان
١٤ – الكأس الفارغة
١٥ – نور الله ( جزءان )
١٦ – قاتل حمزة
١٧ – مواكب الأحرار
١٨ – الظل الأسود
١٩ – الرايات السوداء

## مجموعات قصص قصيرة

٢٠ ـ موعدنا غداً
٢١ ـ دموع الأمير (رجال الله)
٢٢ ـ العالم الضيق
٢٣ ـ عند الرحيل

## دراسات

٢٤ ـ اقبال الشاعر الثائر
٢٥ ـ شوقي في ركب الخالدين
٢٦ ـ الاسلامية والمذاهب الأدبية
٢٧ ـ الطريق الى اتحاد إسلامي
٢٨ ـ المجتمع المريض
٢٩ ـ أعداء الاسلامية

## شعر

٣٠ ـ أغاني الغرباء
٣١ ـ عصر الشهداء

## مسرحيات

٣٢ ـ على أسوار دمشق